بكاء عند البحر

رواية

إيمان مختار قاسم

ديوان العرب
للنشر و التوزيع

دار ديوان العرب للنشر و التوزيع – مصر - بورسعيد

اسم العمل : بكاء عند البحر

اسم المؤلف : إيمان مختار قاسم

الجنسية : مصر

التصنيف الأدبي : رواية

الترقيم الدولي : 978 - 977 – 6707 - 11 – 2

رقم الإيداع : 2019 / 11629

تدقيق لغوي : نجاح العالم السرطاوي

تصميم الغلاف : محمد وجيه

المدير العام : محمد وجيه

تليفون : 00201211132879

الإهداءُ

" إلى أبي الذي رحلَ مبتسمًا"

إيمان

*****

هذه الكلماتُ لي ولكَ دون سوانا..

إنها الكلماتُ الأولى التي أخفيها عن الناسِ لأنها...

" شيءٌ خاصٌ جدًا"

إيمان

*****

ليس هناك أروع من مشهد الشـروق ... مشهد يفجر داخل قلبك ينابيع الحب والخير والجمال....مشهد يزيد من شفافية روحك ونقاء قلبك ، إنه يحملك معه إلى عالم أسمى وأبهى من عالمنا هذا... ومن يحب الخير يحب الشروق.... فالصفاء والنقاء والعذوبة التي تتمثل في مشهد الشـروق ما هي إلا تعبير عن الخير .. ومن يحب الحب يحب الشـروق... فالحب إحساس ينير قلبك والشـروق ينير لنا الحياة... ومن يحب الجمال يحب الشـروق ...
فما أروع تلك الألوان التي تظهر تدريجيًا على صفحة الأفق وتمتزج في رقة وعذوبة وهدوء...
وكان هو من عشاق الـشروق ..... فقد استيقظ بعد آذان الفجر وتوضأ وصلى وراح يرتدي ملابسه متوجهًا نحو شاطئ البحر في مدينة الإسكندرية...
كان الجو وقتذاك باردًا ولم تكن هناك حركة سوى حركة بعض الصيادين.... راح يجلس على الرمال وهو يستمع إلى الأغنيات العذبة التي تناقلتها ألسنتهم بينما عيناه تتأملان مشهد الشروق في إعجاب شديد ...
ظل هكذا حتى غطى الضياء كل أرجاء المكان....

من على بعد لمح فتاة مقبلة حاملة طعام الإفطار لوالدها، إنها "منيرة" ابنة عبد المولى الصياد .. فتاة رقيقة من يراها يشعر بالأمان، ربما لهدوء ملامحها أو لأن صفاء قلبها ينعكس على تعبيرات وجهها.. وقد أحس بهذا الارتياح منذ رآها أول مرة حين كانت تعاون والدها في عمله.. وكثيرًا ما دار بينهما الحوار فكشفت كلماتها عن صفاء روحها .. لقد أحبها رغم الفارق بينهما في التعليم ، فقد كانت حاصلة على الابتدائية أما هو فحاصل على بكالوريوس تجارة، اقتربت منه وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة

منيرة: صباح الخير يا شوقي

شوقي : صباح النور

منيرة: منذ مدة لم نرَك

شوقي : كنت مشغول في البحث عن عمل....والحمد لله وجدته .....سأعمل أمين مخازن في إحدى المدارس.

تهلل وجه منيرة تلقائيًا وراحت تقول : مبروك يا شوقي..... ولكن لا يبدو عليك أنك سعيد بالعمل.

رد شوقي بشيء من الفتور : هذا مجرد عمل مؤقت....إن أحلامي أكبر بكثير من هذه الوظيفة ، أريد أن تكون

لي شركتي الخاصة أضع فيها كل مجهودي وأفكاري
وتكون جزءًا مني ....لا أن أكون مجرد موظف .....
منيرة : ابدأ بالصغير فيومًا من الأيام يكبر...
شوقي : أتعلمين إن كلماتك تريحني كثيرًا ، فرغم بساطتها إلا أنها عميقة ..
ثم صمت بعض الوقت وراح ينظر في ساعته
شوقي : يجب أن أنصرف الآن، سأعود للمنزل لتناول الإفطار ثم أتوجه إلى العمل
منيرة : أدعو الله أن يوفقك
أحس بقلبه يرد على كلماتها ويقول : يوفقنا معًا، هم بأن يقولها بلسانه ولكنه تراجع أليس من الجائز أنها تحب شخصًا آخر ...لا لن يضعف ....لن يبوح لها بما في قلبه سينتظر حتى يتأكد من مشاعرها ..

****

عادت منيرة إلى المنزل ....منزل قديم أنهكه الزمن.....
جدرانه باهتة ....أثاثه بالٍ، وهو مع ذلك يلقي في نفس من يدخله إحساسًا بالارتياح ربما لا تستطيع أن تشعر به داخل القصور الفخمة التي تبهر العين ببريق أجوف خالٍ من المعاني اتجهت نحو النافذة الخشبية وفتحتها بهدوء لتتجنب صوتها العالي ثم وقفت إلى جوارها، راحت تتذكر الحديث الذي دار بينها وبين شوقي في البداية أحست بالفرحة تجتاح قلبها ....تلك الفرحة التي تحس بها كلما رأته ...لكن هذه الفرحة ما لبثت أن تحولت إلى مشاعر خوف.

إن داخل أعماقها اعتراف سجين ليس من حقه أن يخرج للنور..اعتراف بحبها لشوقي ...حكمت عليه الفوارق الدنيوية أن يظل حبيس قلبها وعقلها

تذكرت كلمات والدها عن شوقي " إنه شاب ذكي ومؤدب.... والده رجل غني وفاضل ....إن التي تستحقه لا بد أن تكون ابنة وزير أو سفير .. وغيرها من الكلمات التي كانت تشعرها باتساع المسافات بينها وبينه تنهدت في ألم وراحت تنظر إلى السماء إنها لا تستطيع أن تمسكها ومع ذلك تحس بأنها قريبة.

أما منزل شوقي فهو على النقيض من منزل منيرة منزل فسيح يتكون من أربع حجرات إحداها للوالد والوالدة والثانية لشوقي وأخيه صلاح والثالثة لأختهم منال والرابعة للزوار، الأرض مغطاه بأنواع فاخرة من السجاد والأثاث يحمل الطابع الشعبي القديم والمتين، وربما يكون أهم ما يلفت النظر في البيت لوحة كبيرة للمسجد الحرام جلبها والد شوقي معه بعد عودته من الحج والشيء المميز للمنزل أيضًا رائحة البخور التي لا تنقطع عنه فالحاج لا يروق له المكان دونها، كانت الأم تعد طعام الغذاء حين سمعت طرقات على الباب، هرولت لتفتح، كانت القادمة هي منال طالبة بالصف الأول بكلية دار العلوم، راحت تقبل والدتها وتقول وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عذبة : جائعة يا أمي ، ترى ماذا أعددت لنا اليوم ؟

الأم : لن أخبرك حتى يحضر أبوك وأخواكِ

منال : هل هي مفاجئة ؟

الأم : نعم

إذًا سأذهب لتغيير ملابسي وأنام قليلًا وأحلم بطعام أم شوقي الشهي.

الأم: لا أرجوك لا تنامي فأنت بالذات من الصعب إيقاظك
منال : لا تخافي فما دمت جائعة لن أتعمق في النوم.
هرولت منال نحو غرفتها وراحت ترتمي على السرير،
تشعر بصداع في رأسها...ربما لطول محاضرة اليوم أو لأنها لم تنم جيدًا بالأمس ....فقد أصرت على الانتهاء من كتاب في الأدب أحضرته معها من مكتبة الكلية.
إن الإنسان إذا أحب ما يقوم بقراءته أو دراسته فلا يهم كم من الوقت يقضيه في هذه القراءة ...وهي تعشق الأدب ...تذوب روحها بين كلمات الشعراء الرومانسيين.. تحس أنها انتقلت إلى عالم آخر ...أرضه أحاسيس ومشاعر .. ونجومه كلمات رقيقة....وهي تشعر أن هذا العالم يكفيها عن العالم الخارجي.. ربما يكون هذا نوعًا من الإغراق في الخيال ولكنه على أية حال خيال إيجابي ينقي روحها من كل خبث ودناءة...وهي تحظى بحب كبير ممن حولها .. فمن يتعرف عليها ويحس بروحها الملائكية لا بد وأن يحبها ...إنها تعيش بالخير تتنفس الجمال...
أما صلاح.... طالب بكلية الزراعة بالسنة الثالثة، يختلف في أشياء كثيرة عن أخته منال ، عقله يعمل أكثر من مشاعره وعواطفه، ليس معنى ذلك أنه إنسان بارد ..

كل ما في الأمر أنه يستخدم عقله قبل أي شيء آخر، فهو عندما يشعر لابد أن يكون شعوره منطقي فهو يحب بعقله ويكره بعقله أيضًا... وربما يكون هذا النوع من التفكير هو الذي يعطيه الاستقرار الواضح في شخصيته بعكس منال التي تبدو كأمواج البحر هائجة ثائرة أحيانًا وأحيانًا أخرى ساكنة وهادئة ، وهي كثيرة الشرود والسرحان ....قد يستوقفها مشهد وتظل تفكر فيه ليالي طويلة.....تحب الجمال ولكنها لا تستطيع رسمه ...تحب الشعر ولكن لا تكتبه، أحيانًا تكتب بعض المذكرات الخاصة بها..وهي تهوى سماع الموسيقى وتعلمت العزف منذ كانت طفلة صغيرة ، والفضل في ذلك يرجع إلى معلمها في الابتدائية الذي أدرك أن لديها موهبة حقيقية فتعلمت العزف على البيانو والعود، وعندما كبرت استهواها صوت الجيتار فألحت على والدها أن يشتريه لها، ورغم عدم اقتناع الأب بهواية ابنته إلا أنه اشتراه لأنها كانت المرة الوحيدة التي ألحت فيها منال على طلب شيء وأصبح الجيتار رفيقها في أوقات الفراغ، حيث كانت تتردد على قصر الثقافة لأخذ دروس في العزف عليه وتشترك في الحفلات التي يقيمها القصر.

أما شوقي فقد كان مزيجًا من منال وصلاح، لا يتغلب عنده الجانب العقلي على العاطفي أو العكس... فعندما أحب منيرة أحبها بعقله وقلبه معًا.. قلبه أحبها لأنها إنسانة رقيقة ونقية وعقله أحبها لأنها أقل منه في مستوى التعليم وهو يريد أن يشعر بتفوقه على شريكة حياته...إنها عقدة الرجولة الزائفة التي توارثها عن أبيه...

****

في ذلك الوقت كان صلاح عائدًا من كلّيتهِ راح يطرق الباب طرقات مرحة ففتحت له الأم مستقبلة إياه بابتسامتها العذبة وهي تقول: تبدو سعيدًا

صلاح: ولمَ لا ولم يبقَ سوى أسبوعين ونأخذ إجازة نصف العام.

الأم: هل تكره الكلية إلى هذه الدرجة؟

صلاح: لا لست أكرهها كل ما في الأمر أنني اشتقت لأيام الحرية.

صمت قليلًا وعاد يقول: هل عاد شوقي؟

الأم: لا لم يعد...منال في حجرتها..

ثم قالت بلهجة معاتبة: أنت الذي بدأت بالخطأ وعليك أن تعتذر لها.

صلاح: صدقيني لم أكن أقصد...كنت أتناقش معها بحماس زائد جعلني أخبرها برأيي فيها بصراحة.

الأم: وهل الصراحة أن تجرح أختك ؟

صلاح: هل ما زالت غاضبة مني ؟

الأم: ادخل لها واعرف الإجابة بنفسك.

ابتسم صلاح وعانق أمه وهو يقول: لا بأس سأرضيك وأدخل لها.

الأم: ليس من أجلي...أنت أخطأت في حقها ويجب أن تعتذر...هل فهمت

صلاح: فهمت

ثم توجه نحو غرفة منال وراح يطرق الباب طرقات عالية فسمع صوتها من الداخل تقول: ادخل يا صلاح

صلاح: وكيف عرفت أنه أنا؟

منال: من السيمفونية التي عزفتها على الباب.

فتح صلاح الباب وجلس بالقرب من أخته وراح يقول: أجمل شيء يعجبني فيك طيبة قلبك

منال: وسذاجتي

صلاح: إذًا لا زلت غاضبة مني

منال: نعم

صلاح: لا تنسي أنك أخذت بثأرك مني ألم تقولي أنني بارد ومتخلف

منال: أنت فعلًا إنسان بارد

صلاح: تكررينها مرة أخرى

منال: نعم...إذا أراد رجل مثلك أن يعتذر لشابة رقيقة مثلي أليس من الذوق أن يحضر له معها هدية.

صلاح: لا أريد هذا الاعتذار المكلف

منال: بارد وبخيل أيضًا

صلاح: أنا لا أسمح لك...

قطع كلام صلاح صوت أمه وهي تقول لهم: كفى شجارًا وهيا فطعام الغداء جاهز.

****

في المساء كان صلاح يستعد لمغادرة المنزل ، ينوي زيارة صديقه محمود، أضاء نور الحجرة مما أغضب شوقي الذي كان نائمًا فصاح قائلًا:

- ألم أقل لك ألف مرة لا تفتح نور الحجرة عندما أكون نائمًا

- وأين أرتدي ملابسي؟

- في الصالة

- ولمَ كل ذلك هذا ليس موعدًا للنوم، هيا انهض وكفاك خمولًا، ثم إن النوم بعد الغداء مضر

- لكنه لا يضرني أنا

- لا بأس سأريحك وأغلقه...ربما أتأخر اليوم عند محمود

- ولمَ لا تريحنا وتبقى عنده حتى الصباح

ضحك صلاح وقال وهو يتجه نحو باب الغرفة: أبدًا لن أريحك سأظل معك رغم أنفك حتى تأتي عروسة البحر لتخطفك مني

- ستأتي قريبًا بإذن الله

- وأنا في أشد الشوق لأعرف من هي

- سأخبرك في الوقت المناسب

- ومتى يأتي هذا الوقت؟

- عندما أتأكد من مشاعرها، وقتها سأتوجه فورًا إلى والدها

- وأنا سأتوجه فورًا إلى محمود فغدًا امتحان وليس أمامي وقت لأضيعه معك ، عن إذنك.

كانت الساعة السادسة حين وصل صلاح إلى منزل محمود..

رحب به محمود وذهب ليصنع له الشاي...

منزل محمود متواضع جدًا عبارة عن حجرة وصالة، بعض الأثاث المتهالك، الأرض خاوية من السجاد، لكن محمود حريص على نظافة ونظام المكان مما يعطي راحة نفسية لمن يدخله..

تحدثا لبعض الوقت ثم دخل محمود إلى حجرته وأحضر معه صينية منقوش عليها زخارف فنية رائعة ثم قال لصلاح في فرح: أخبرني..ما رأيك ؟

تأملها صلاح في إعجاب ثم قال:

- رائعة حقًا، لكن يا محمود لا بد أن العمل بها أصابك ببعض الإجهاد فهذا واضح على عينيك ، لماذا لم تؤجلها حتى تكون مستعدًا لامتحان الغد؟

- لا أستطيع أن أحجر على حق يدي في التعبير طالما

جاءني الإحساس بالعمل وقتها لا يهمني أي شيء آخر

- جنون فنانين

- جنون إيجابي ، أنت بنفسك قلت أنها عمل رائع

- لماذا لا تحاول بيع هذه التحف، إن منزلك صار مكدسًا بها ومن الأنانية أن تتمتع بموهبتك دون أن تشرك الآخرين فيها...ثم إن ظروفك...

نظر له محمود معترضًا فقال له صلاح:

- آسف...لم أكن أقصد

- لا عليك ، إن احتفاظي بهذه الأشياء نابعٌ من إحساسي بأنها الشيء الوحيد الجميل في حياتي...أشعر أنها جزء من ذاتي...

- تبيعها لتصنع ما هو أفضل منها

- لا أستطيع

- تملُّك ؟

- ولمَ لا تقول وحدة..؟

ربما تكون ظروف محمود القاسية هي التي صنعت ذلك الفنان ، أو ربما كان لعامل الوراثة أثر في ذلك... فوالده كان يعمل في حرفة الزخرفة و له متجر في خان الخليلي لتصنيع وبيع هذه التحف، مات والده وهو في الثامنة من

عمره فأخذته والدته إلى الإسكندرية لتكون بالقرب من أهلها – أو من اعتقدت أنهم أهلها – لقد تخلى الجميع عنها ولم يتحمل أحد مسئوليتها ، وبدأت رحلتها مع الشقاء.. لم تجد أمامها سوى العمل كخادمة لدى عائلة ثرية ، كانت تحاول أن تبدو سعيدة أمام ابنها حتى لا تشعره بما تعاني من مشقة العمل وما يواجهها من إهانات بسببه.. لكنه كان يشعر بها، فكثيرًا ما تظاهر بأن النعاس قد غلبه وسمعها وهي تبكي بكاء خافتًا وتناجي زوجها الراحل الذي تركها وحدها تعاني في حياة قست عليها.. وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره راح يبحث عن عمل وألح على والدته أن تترك عملها خاصة بعد أن تدهورت صحتها ، وأخيرًا استجابت والدته لإلحاحه وبعد خمس سنوات من تركها للعمل ماتت... وتركته وحيدًا يتجرع مرارة الفراق الذي ما زال إلى الآن يحس به ويخشى منه.

****

كانت منال تجلس في حجرتها بمفردها، شعرت بحنين للموسيقى، حملت الجيتار بين يديها في سعادة ثم فتحت نافذة الغرفة لينساب منها الهواء مع انسياب صوت الجيتار..

كان الجو حولها هادئًا مما جعلها تندمج مع الموسيقى لدرجة عزلتها عن العالم الخارجي...لم تنتبه لشوقي عندما دخل عليها ، وقف صامتًا يتأملها وهي تخطو مع الجيتار في أنحاء الغرفة مسدلة العينين...

وكان صلاح عائدًا من الخارج ، سمع صوت الموسيقى فدخل وجلس بجوار شوقي..

انتهى اللحن وفتحت منال عينيها وكأنها قد استيقظت من نوم عميق..رأت صلاحًا وشوقي ، شهقت وتراجعت خطوة للوراء ثم قالت: أهلًا وسهلًا بكما

شوقي: هل أفزعك وجودنا

منال: أبدًا إنها فرحة المفاجأة ، ثم تمتمت بصوت منخفض: كان علي أن أتأكد أنني أغلقت الحجرة بالمفتاح

صلاح: هل تقولين شيئًا ؟

منال: لا أبدًا

شوقي: ما اسم هذه المقطوعة؟

منال: شروق

ضحك صلاح وقال: أنت أيضًا...هل أصابك شوقي بعدوى حب الشروق

شوقي: عدوى!! لو جئت معي مرة واحدة لغيرت رأيك

صلاح: أنت تعلم أن منظر البحر لا يروقني يشعرني بعدم الاستقرار وأنا أحب الأشياء المستقرة

منال: هذا فقر في الخيال

صلاح: ربما واقعية

منال: ليس معنى الواقعية أن ينعدم الخيال من حياتك

صلاح: ومن قال أن الخيال لا وجود له في حياتي ، فقط لا أحب الإغراق في الخيال

منال: أكبر متعة أن تغرق داخل خيالك

شوقي: لكل شيء حدود يجب أن لا يتخطاها

منال: وأنا أكره الحدود

صلاح: تذكرينني بمحمود فهو مثلك يعشق الخيال...هل كل الفنانين بهذا الجنون؟

منال: ومن قال أني فنانة،أنا مجرد فتاة تحب الفن وتجيد العزف على الجيتار

شوقي: وتملكين إحساس الفنان

صلاح: وجنونه

منال: شيء واحد يحيرني يا صلاح...كيف نشأت بينك وبين محمود صداقة رغم هذا الاختلاف الشديد في طبيعة كل منكما؟

صلاح: لا أحب مصادقة من هم في نفس تفكيري فهذا يشعرني بالملل

"هل انتهيتم من المذاكرة"

كان هذا صوت والدهم

صلاح: تفضل يا أبي

منال: كنا نستريح بعض الوقت

شوقي: أما أنا فقد تم إعفائي من هذا القلق السنوي

الأب: ويجب أن تبدأ في التفكير في تكوين أسرة

شوقي: لكن مرتبي الحالي لا يفتح منزلًا

الأب: وأين ذهبت أنا؟ كل ما هو مطلوب منك اختيار الزوجة المناسبة.

في هذه اللحظة تذكر شوقي منيرة فلمعت عيناه ببريق خافت لاحظته منال فراحت تقول مداعبة: يبدو أنه اختارها بالفعل

الأب: هل هذا صحيح يا شوقي؟

أومأ شوقي برأسه موافقًا

قال والده وقد بدأت عليه علامات الاهتمام: من هي؟

شوقي: أريد ان أعرف رأيها أوّلًا

الأب: وهل هناك من ترفض ابن الحاج متولي أكبر تاجر قطن بالإسكندرية !!

يبدو أنك تهذي...ثم انصرف من الغرفة غاضبًا وأغلق الباب وراءه.

لم يتمالك صلاح نفسه من الضحك فراح شوقي يسأله في ضيق: ما الذي يضحكك الآن؟

صلاح: لقد نسي الحاج شيئًا هامًا

شوقي: ما هو؟

صلاح: أن الزوجة المنتظرة ستكون زوجتك أنت لا زوجة أكبر تاجر قطن في الإسكندرية.

****

كان شوقي يسير بجوار الشاطئ يفكر فيما سيقوله لمنيرة فهو يريد أن يعرف رأيها في ارتباطهم، يغمره شعور بالقلق... يحبها حبًا كبيرًا ومن الصعب عليه أن يتخيل الحياة مع امرأة أخرى ، لم يشعر بتلك المشاعر إلا معها ، لم يرَ ذلك الصفاء إلا في عينيها ..ومن جانب آخر ثقته في نفسه تؤكد له أنها ستكون من نصيبه في النهاية لمحها قادمة فأشرق وجهه بالسعادة، وأحس بارتباك وبقلق يزداد، حيته فرد تحيتها وراح يقول: أين الحاج عبد المولى؟

ابتسمت منيرة في عذوبة وقالت : في الداخل يشرب الشاي قبل أن يذهب للسوق.

أحس شوقي بشيء من الضيق فهو لا يريد أن يأتي والدها قبل أن يعرف رأيها

لمحت منيرة في عينيه ذلك الضيق فقالت: ماذا بك؟ يبدو أنك تعاني من مشكلة ما..

تعجب شوقي فلم يكن يعلم أن ما بداخله يظهر بهذه السهولة على تعبيرات وجهه فأخذ يقول في جدية: كنت أريد أن أتحدث مع والدك في موضوع هام وأردت أن أعرف رأيك فيه أوّلًا ..

بدا الاهتمام على وجه منيرة فقالت: ما هذا الموضوع؟
شوقي: هل توافقين على أن تكوني شريكة حياتي ؟
ارتبكت منيرة واحمر وجهها ولمعت عيناها ببريق فرحة وازداد خفقان قلبها .. لا تكاد تصدق... تحس الآن فقط أنها أمسكت السماء بيديها.
أدرك شوقي كل هذا الاضطراب فكاد يطير من الفرحة وقال وهو ينظر إلى البريق الذي في عينيها: لا داعي لأي كلمات فقد عرفت الإجابة...أحبك يا منيرة...اذهبي إلى والدك أريد مقابلته الآن..
ابتسمت منيرة في حياء وهرولت إلى المنزل وطرقت الباب، ففتح والدها...قالت له وهي تهرب بوجهها: شوقي يريدك يا أبي.

****

هل جننت يا شوقي؟

قال هذه العبارة صلاح عندما فاتحه شوقي في موضوع منيرة..

-لماذا ؟

-ابنة عبد المولى الصياد أفقر من في الإسكندرية !

-أنسيت كلماتك سأتزوج منيرة لا والدها

-ومنيرة هل هي المرأة التي تستطيع أن تكمل معها مشوار حياتك؟

إنها لم تتعلم، لم تحصل حتى على الابتدائية...أين التكافؤ إذًا بينكما؟

-لكني أحبها

-هذا ليس حبًا ، كيف ستتفاهم معها...فيمَ سيكون الحوار بينكما أيها الرجل المثقف

-أريد من تمنحني حبها وحنانها لا من تمنحني عقلها

-سيأتي اليوم الذي تحتقرها فيه عندما تشعر باتساع المسافات التي تفصل بين كل منكما

-هذه حياتي وأريد أن أعيشها كما أرى لا كما ترى أنت ووالدي

-حاول أن تفكر معي بعقلك بعيدًا عن العاطفة هل كنت ستختارها؟

-نعم...إن من الأشياء التي أعجبتني فيها أنها أقل مني في كل شيء ، أريد أن أشعر أنها بحاجة لي باستمرار، أنني الحماية الوحيدة لها في الحياة..

-بمنتهى الصراحة هذا تفكير متخلف ، إنك تريد من تسيطر عليها لا من تحبها..

-ربما أكون ذلك الرجل المحب للسيطرة لكنني كإنسان أحبها بصدق.

****

كانت منال تجلس داخل حجرتها حين سمعت طرقات على الباب ذهبت لتفتح..كان القادم هو "محمود" صديق صلاح

قال من خلال نبرات صوته الهادئة : صلاح موجود ؟

منال: نعم، تفضل سأذهب لإيقاظه

فتحت له باب الصالون وغابت قليلًا ثم عادت ومعها صينية عليها عصير برتقال

منال: سيغسل وجهه ويأتي حالًا

محمود: هل أنت متأكدة أنه استيقظ؟

منال: نعم لم أتركه إلا بعد أن رأيته واقفًا أمامي

ها قد أتيت أيها الفنان المجنون...كان هذا صوت صلاح

منال: عن إذنكم سأتركم لتذاكروا

محمود: ولمَ لا تذاكرين معنا

نظر له صلاح متعجبًا من كلماته فشعر محمود بحرج

حاولت منال تغيير الموقف فقالت : هل تريدون شايًا أم قهوة ؟

محمود: إذا سمحت شاي

انصرفت منال لتعد الشاي بينما راح صلاح يقول في دهشة: أنا أعلم أنك لا تحب الشاي

محمود: بدأت أحبه هل عندك مانع

صلاح: لا

وبدأ صلاح يفتح الكتب لكن محمود واصل الحديث قائلاً : نسيت أن تخبرني ماذا فعل شوقي؟

صلاح: ما زال متمسكًا برأيه والوالد كذلك

محمود: أنا لا أعرف لماذا تقفون جميعًا في وجه هذا الحب هل لأنها فقيرة؟

صلاح: الزواج الناجح يجب أن يكون متكافئًا من جميع الجوانب وإذا تغاضينا عن الفارق المادي فالفارق الثقافي بينهما كبير..

محمود: أرى أن لا تحاولوا الحجر على تصرفاته اتركوه ليخوض التجربة بنفسه

صلاح: إذًا أنت معه ؟

محمود: الحب لا يخضع لهذه المقاييس التي وضعتها أنت وأبوك...الحب التقاء روحين، لا يجب أن تحلله أو تخضعه لأسئلة كثيرة، فأنت عندما تحب لن تقول هذه تناسبني يمكنني أن أحبها أو هذه ظروفي المادية لا تسمح لي بحبها، وإلا تحول لشيء تافه لا معنى له..

صلاح: هذه رومانسية زائدة ، أنا معك أنك قد تشعر بارتياح روحاني تجاه فتاة معينة ولكن عليك أن لا تستسلم لهذا الشعور إذا كان غير منطقي

محمود: ألهذا الحد تستطيع التحكم في مشاعرك؟

صلاح: إن قلبي في يد عقلي يحركه كما يشاء إذا أمره بالحب أحب وإذا أمره بالابتعاد فلا يخالفه أبدًا..

محمود: هذا الرأي عن تجربة؟

صلاح: في فترة المراهقة كان عقلي باستمرار يقول لي لا...أما الآن فلم يعد يقول شيئًا فلا أحد في حياتي .

عاد محمود إلى منزله وقد حشد ذهنه بالعديد من الأفكار وامتلأ قلبه بمشاعر شفافة لا يعرف مصدرها..

أحس بحنين للفرشاة والألوان، راح يرسم الخطوط الأولى لوجه فتاة...انهمك في عمله لدرجة أنسته الوقت الذي مر سريعًا..كان هذا الوجه وجه منال...لا يعرف لماذا أحس بكل هذا الحماس ليرسم وجهها، وما سبب تلك السعادة التي يشعر بها كلما رآها ، هل جمالها هو الذي جذبه إليها لا...فقد التقى في حياته بمن هنّ في جمالها أو يفقنَ عنها...ومع ذلك لم يشعر بهذا الانجذاب لهن ، هناك شيء

آخر، ربما الطهر والبراءة التي يراهما في عينيها، ربما رقة مشاعرها ، هي ليست كأي امرأة قابلها، هل يحبها؟ لا يريد أن يتسرع في الإجابة على هذا السؤال، قرر أن يتركه حتى يجيب هو عن نفسه...

رسمها وهي تبكي، هل يحب أن يراها حزينة؟

لا إنه يعشق منظر الدموع في عيون أي إنسان فهي تعبير صادق عن الإنسانية التي بداخله...لكن منظر الدموع في عينيها يعطيه تأثيرًا آخر...فهذه الدموع تزيد من رقتها...

راح نور الفجر يتسلل إليه من خلال زجاج النافذة فدهش لمرور الوقت عليه دون أن يشعر به..

تذكر صلاح...ترى ماذا سيكون رد فعله إذا رأى هذه اللوحة...شعر بقلق وراح يغطي الصورة ببعض الأوراق حتى لا يراها صلاح عندما يأتي لزيارته..

لكن هل سيغضب صلاح إذا رآها؟

لم ينم محمود في تلك الليلة..

شعر برغبته في المشي لبعض الوقت بجوار الكورنيش وشجعه على ذلك أن ضوء الفجر بدأ يتسلل إلى

المكان...ولكن...ما إن خرج من منزله حتى وجد نفسه يتجه نحو منزل صلاح...الوقت ما زال مبكرًا جدًا لكنه لم يستطع مقاومة تلك الرغبة..

راح يحوم حول المنزل فترة من الوقت، رأى شوقي وهو عائد من الخارج كانت الساعة لا تزال السادسة، أسرع الخطى حتى لا يراه شوقي واختفى وسط المنازل المتلاصقة...مرت ساعتان وهو يخرج من حارة ليدخل في أخرى...توجه مرة أخرى إلى منزل صلاح، مر بعض الوقت قبل أن يرى منال تخرج من المنزل، ناداها في صوت خافت...التفتت إليه وآثار الدهشة واضحة على وجهها..

منال: صباح الخير يا محمود

محمود: صباح النور، ألم يخرج صلاح بعد؟

منال: لا

محمود: آه...كنت أود أن أسألك هل عندك محاضرات كثيرة غدًا ؟

منال: لماذا تسأل؟

محمود: أبدًا...مجرد سؤال...أقصد أن لي صديقًا وعدته أن أقابله غدًا...هو معك في نفس الكلية لكن نسيت أن

أسأله عن مواعيده.

منال: تقريبًا في الواحدة عن إذنك.

أحس محمود بسعادة كبيرة فقد كان ينوي الذهاب لمقابلتها غدًا.

****

كان الحاج متولي والد شوقي يصلي في حجرته وقد ترك بابها مفتوحًا، دخل شوقي وجلس على الكرسي لحين يفرغ والده من صلاته، أحس أنه أحسن الاختيار حين جاء له وهو يصلي فلا بد أنه سيكون هادئ النفس..

فرغ والده من الصلاة

شوقي: حرمًا يا أبي

الأب: جمعًا إن شاء الله، ماذا تريد؟

شوقي: كنت أريد أن أعرف قرارك الأخير في موضوع منيرة

بدأت الثورة تظهر على وجه الأب مما خيب أمل شوقي وقال وهو يضع السجادة على السرير: ألم تعرفه بعد ؟!

شوقي: اعتقدت أنك ربما تغير رأيك

الأب: الحاج متولي لا يغير رأيه أبدًا

ثم اقترب من ابنه وراح يقول بنبرة الحكماء: اسمع يا بني تخيل أنك قمت ببناء منزل كبير ومكثت سنوات طويلة حتى أكملته وجاء من يريد شراءه منك بربع التكلفة هل توافق على بيعه؟

شوقي: طبعًا لا...لكن يا أبي لا وجه للشبه، منيرة إنسانة

طيبة وأخلاقها تزيد من قيمتها.

الأب: لكنها ليست مثلك، والدها صياد فقير ووالدك أكبر تاجر قطن في الإسكندرية، لم تكمل تعليمها وأنت تخرجت من الجامعة، هل تريدني أن أبيعك بالخسارة ؟!

شوقي: أنا إنسان لست سلعة ومن حقي اختيار شريكة حياتي

الأب: أنت مصر على رأيك

شوقي: نعم

الأب: إذًا تأكد أنك لو تزوجتها فلن أعطيك الشقة التي بنيتها لك، ولن أساعدك في أي شيء لن أعطيك مليمًا واحدًا...حتى هذا المنزل لن تدخله طوال حياتي

شوقي: وهل ارتكبت جريمة حتى تظلمني كل هذا الظلم؟

الأب: نعم، خالفت أوامري...أرني كيف ستعيش معها بمرتبك أيها الصعلوك التافه.

جاءت الأم على صوت شجار شوقي وأبيه، حاولت تهدئة الموقف بلا جدوى..

ظل الأب يهدد ويتوعد لدرجة جعلت شوقي يحس بالدماء الساخنة تندفع إلى رأسه والعرق يتصبب من جبينه

وشعر برغبة في البكاء فانصرف من أمام أبيه وأغلق عليه غرفته بيد مضطربة راح يفتح زجاج النافذة فقد أحس باختناق نتيجة لكبته لدموعه التي رفض أن يراها والده ولكن ما إن دخلت منال وسألته عما حدث إلا ووجد دموعه تنطلق من سجن عينيه دون أن يعوقها عائق..

اقتربت منال منه وربتت على كتفه في حنان محاولة أن تخفف عنه فهي المرة الأولى التي ترى فيها شوقي يبكي بهذه الحرقة..

منال: لا أحب أن أرى هذه الدموع في عينيك

شوقي: أنت لم تسمعي إهاناته التي صبها علي ، ولم تري الشرر وهو يتطاير من عينيه وكأنني ارتكبت خطيئة...أخبريني يا منال هل حبي لمنيرة ورغبتي في الزواج منها خطيئة؟

منال: أنت تعلم أن اعتراضه على منيرة لأنها أقل منك وهذا ما يحزنه كأب...يشعر أنها لا تستحق أن يمنحها جزءًا منه

شوقي: أبوته لي لا تعني أنه امتلكني سأتزوج منيرة مهما حدث

ثم توجه نحو باب الغرفة فراحت منال تقول في قلق: إلى أين؟

شوقي: إلى الشاطئ...أريد أن أستنشق بعض الهواء النقي

منال: سآتي معك

شوقي: أريد أن أكون بمفردي

نظرت له وراحت تقول في رجاء : لا تتأخر...ستعود للمنزل أليس كذلك؟

لم يجبها شوقي مما زاد قلقها وطرق الباب خلفه بعنف.

كانت قدماه تسير في اتجاه منزل منيرة...راح يتذكر كلمات أبيه " أرني كيف ستعيش معها بمرتبك أيها الصعلوك التافه" شعر بجرح غائر في كرامته وزاد من إحساسه بالذل أنه بكى لأول مرة في حياته أمام أخته وراح يلعن الحب الذي وضعه في هذا الموقف الذليل...

ولكن ما ذنب الحب ؟ ...الحب إحساس طبيعي يملأ حياة الناس بهجة وأملًا..

الحب إحساس إنساني يمتاز بالسمو طالما كان طاهرًا...إذا البكاء بسببه ليس عارًا

ولكنه لم يبكِ من الحب....بكى لأن والده جرح

كرامته...ولكن ما السبب في ذلك؟...

إنه الحب...إذا الحب هو الذي أذله...لا ليس الحب...إنها عقلية والده المتزمتة..

طوال حياته ووالده يمثل له صرح الحياة المادي، أما المشاعر والعواطف فلم تكن في يوم من الأيام من اختصاصه...تقوم بها الأم نيابة عنه...فهو يرى خشونة الرجل تتعارض مع تعبيره عن مشاعره تجاه أولاده واثق هو من حب أبيه له...لكن مشاعره نحوه ونحو باقي أخوته كانت كأنها طعام معلب ، ظل في علبته منذ ولادتهم ولم يتذوقوا طعمه حتى الآن...

راحت هذه الأفكار تدور في ذهنه إلى أن وجد نفسه أمام منزل منيرة...طرق الباب بقوة، فتح له الحاج عبد المولى، نظر إليه بدهشة فقد كان وجهه يكسوه الاحمرار وأنفاسه لاهثة...

راح شوقي يقول له في تحدٍ: عندما وافقت على خطبتي لمنيرة أكان ذلك من أجلي أم لأنني ابن الحاج متولي؟

الحاج عبد المولى: عندما وافقت عليك كنت أشتري لابنتي رجلًا ولا يعنيني من أبوه غني أم فقير.

أحس شوقي بثقته في نفسه تعود إليه فهدأ بعض الشيء و راح يقول وقد علتْ وجهه ابتسامة : لقد أعدت لي الحياة بكلماتك هذه ...أنا الآن أطلب يد ابنتك على أنني شوقي الشاب الفقير ولا يوجد معي مهر أقدمه سوى حبي لها الحاج عبد المولى: مبروك يا شوقي منيرة من نصيبك.

****

ساد التوتر والقلق منزل شوقي فهو لم يعد حتى الآن، و الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل ..
راحت الأم توبخ ابنتها وتقول : كان عليك أن لا تتركيه يخرج بمفرده وهو في هذه الحالة.
منال :لم أكن أتوقع أنه سيتأخر كل هذا التأخير
صلاح : اهدئي يا أمي لابد أنه سيبيت عند أحد من أصدقائه حتى ينسى ما حدث
الأب : وما الذي حدث ؟! هل كنت تريدين أن أصفق له و أقول سآتي بنفسي معك لخطبتها
الأم : أنت الذي ستفقدني ابني بتعصبك
الأب : هل كنت أتركه لطيشه يتصرف في حياته كيف يشاء ؟
الأم : ابني رجل ليس شابًا عابثًا
منال : نسينا شيئًا هامًا ..لماذا لم نسأل عنه عند الحاج عبد المولى ؟
صلاح : معك حق سأذهب لأسأله
الأم : أنت السبب يا حاج اذهب إليه و أعده إلى منزله
الأب : هل جننت، لم أطلب منه أن يترك المنزل وإذا عاد سأطرده

منال : لم هذه القسوة
الأب : حتى يتعلم أن يحترم أباهُ
الأم : لا تنسى أنك جرحت كرامته
الأب : وهو خرج عن طوعي
الأم : منيرة ليست سيئة الخلق لماذا ترفضها وتفرض عليه من لا يريدها هذا لا يرضي الله أبدًا
شعرت منال بضيق من هذا الحوار المليء بالمشاحنات فتوجهت إلي الشرفة ..
بعد قليل عاد صلاح وأخبرهم أن شوقي سيبيت في أحد الفنادق.. بعدها ذهب إلى الشرفة حيث تقف منال
- ماذا بك يا منال ؟
لم تتمكن منال من التحكم في دموعها فهبطت بغزارة وهي تقول حزينة من أجل شوقي وخائفة من المستقبل، إن والدك شديد التمسك برأيه و أخشى أن أتعرض لنفس موقف شوقي في يوم من الأيام ساعتها سيكون الأمر أصعب لأنني فتاة
صلاح : أفهم من ذلك أن هناك ما تخفينه عني
منال : لا طبعًا
صلاح : ولماذا إذًا الخوف طالما أن الملعب لازال خاليًا

منال : أي ملعب تقصد ؟

صلاح : قلبك

ضحكت منال و راحت تقول : ملعب أول مرة أسمع هذا التشبيه، ثم نظرت إلى السماء بتأمل وقالت: لوحة رائعة

صلاح : فعلاً وتحتاج لأصابع محمود كي ترسمها ...آه تذكرت لقد كنت أنوي الذهاب إليه اليوم لكن الوقت قد تأخر إنه لم يأتِ إلى الكلية اليوم أخشى أن يكون مريضًا.

أحست منال بقلق وتلعثمت نبرات صوتها وهي تقول:

اذهب لتطمئن عليه...ربما يكون بحاجة إليك

صلاح: الوقت متأخر

منال: وماذا لو كان مريضًا فعلًا ولا يوجد من يساعده... سيكون في حاجة إليك في أي وقت... اذهب

صلاح: حسنا سأذهب لكن إذا تأخرت أبلغي الشرطة

****

كان محمود في طريقه إلى كلية دار العلوم لمقابلة منال، لا يعرف لماذا أقدم على هذا التصرف...هل هو يحب رؤيتها... لكن لِمَ هي بالذات التي يرتاح لرؤيتها والحديث معها... ترى ماذا ستكون ردة فعلها لو اكتشفت كذبه؟

ظل واقفًا فترة من الوقت داخل حوش الكلية وهو يراقب ساعته في قلق، لقد أخبرته أن المحاضرة تنتهي في الواحدة وها هي الواحدة والنصف، لمحها قادمة مما أزال القلق الذي لاح في أفقه...

ابتسمت وهي تصافحه قائلة: أهلًا بك في كليتنا

محمود: أهلًا بك

منال: هل وجدت صديقك؟

محمود: لا...لم أره بعد....هل يضايقك الوقوف معي حتى يصل صديقي؟

منال: أبدًا يا محمود، أنت اليوم ضيفنا

نظر محمود إلى وجه منال الذي بدا متغيرًا وقال: يبدو عليك الإرهاق

منال: البيت كان متوترًا بالأمس...طبعًا صلاح حكى لك

محمود: لا...ماذا حدث؟

منال: أنت تعلم رفض أبي لزواج شوقي من منيرة

محمود: نعم

منال: أمس نشب بينهما شجار حاد وغضب شوقي وترك المنزل

محمود: وهل أنت رأيك مثل رأي والدك؟

منال: شوقي يحبها وليس من الإنسانية أن يقف أحد في وجه هذا الحب

محمود: لم يقف والدك في وجه الحب فهو الشيء الذي لا يشغله في هذا الموضوع وإنما وقف في وجه الفقر

مر بعض الوقت ....

فراحت منال تنظر في ساعتها وتقول: يبدو أن صديقك لم يأت الكلية اليوم

أحس محمود بارتباك وبأن منال قد كشفته فراح يقول وهو ينظر في الأرض: آسف يا منال لقد كذبت عليك أنا لا أعرف أحدًا هنا غيرك

منال: كنت أشعر بذلك...لكن لماذا كذبت؟

محمود: هل أحدثك بصراحة

منال: إذا سمحت

محمود: أحسست برغبة في مقابلتك والحديث معك...

شعرت بحاجتي إليكِ.

منال: وهل هذا يجعلك تكذب؟ الكذب ضعف يا أستاذ محمود وأنا لا أحب الرجل الكذاب...عن إذنك

محمود: أرجوك لا تغضبي مني ...أنا آسف...أعدك أن لا أكررها.

لكن منال لم تلتفت إليه وانصرفت عائدة إلى المنزل.

أحس محمود بخيبة أمل كبيرة وبحنين للبكاء...شعر بنفس الإحساس الذي كان يشعر به عندما كانت أمه توبخه على أخطائه...ترقرقت الدموع في عينيه عندما تذكر أمه وأحس بحنين جارف إليها فتوجه إلى المقابر، وهناك انهمرت دموعه بغزارة وراح يناجيها قائلًا: لماذا تركتني وحدي يا أمي...أنا في أشد الحاجة إلى حنانك...أريد أن تحتويني بين ذراعيك وأبكي فترتاح نفسي...حياتي لا معنى لها دونك...لقد كنت الضوء الذي ينير لي ظلمات الحياة...ولكن الضوء انطفأ وأصبحت أشعر بالضياع دونك.

راح يحتضن حائط القبر وهو يقول: أنا أعلم أن روحك تحس بي الآن...ضميني إليك بقوة حتى أشعر بالأمان

أحس بيد تربت عليه فنهض مفزوعًا، رأى أمامه شيخًا

كبيرًا في السن يتجاوز عمره الثمانين عامًا راح الشيخ يقول له في نبرات حكيمة: كن مع من فوقك تحس بالأمان.

وعاد الرجل يكررها مرة أخرى فصاح محمود في فزع وقال: من أنت؟ إنس أم جان؟ لا بد أنك ملاك الموت...لا أريد أن أموت.

غادر مسرعًا المكان ولم يشعر بالاطمئنان إلا عندما ابتعد عن المقابر.

****

كانت أم شوقي تجلس بمفردها في المنزل حين سمعت طرقات على الباب...

هرولت نحو الباب بلهفة وهي تقول : عاد شوقي، وفعلًا كان القادم هو شوقي

راحت الأم تنظر له بعتاب وتقول: لماذا يا شوقي؟

ارتمى شوقي على صدر أمه فراحت تربت عليه وتضمه إليها بقوة وهي تقول: لماذا تركت أمك يا شوقي؟

نظر لها بحنان وقال: جئت لأدعوك على خطوبة ابنك فهل ستأتين أم ستحرمينه من وجودك معه

الأم: وأبوك

شوقي: وهل سيمنعك...لا ليس من حقه

الأم: لم تفهمني أقصد هل ستخطب منيرة رغم رفض والدك؟ هل ستعيش إلى الأبد خارج هذا المنزل؟

شوقي: وماذا أفعل يا أمي أنا لن أترك منيرة أبدًا

الأم: وتتخلى عن أمك؟

شوقي: أنا لم ولن أتخلى عنك أبدًا

الأم: لماذا إذًا تريد البقاء بعيدًا عني ؟

شوقي: أمي أرجوك لا تضغطي علي، وراح يتوجه نحو الباب ثم التفت إليها قائلا: سأنتظرك غدًا.

منزل عبد المولى في حالة تأهب لحفل الخطوبة.....
وقف شوقي مع العمال الذين جاءوا لوضع المقاعد التي قاموا بتأجيرها بينما كان الحاج عبد المولى في السوق وزوجته تعد العشاء مع أقاربها ومنيرة داخل غرفتها مع صديقاتها.
وقف شوقي عند باب المنزل يحاسب العمال، سمع صوتًا يقول له : ألف مبروك...رفع رأسه كانت أمه هي القادمة... تهللت أساريره وراح يرحب بها
قالت له من خلال نبرات صوتها الحنون: من أين أتيت بالنقود اللازمة للخطوبة؟
شوقي: اقترضت من أصدقائي
راحت الأم تخرج بعض النقود من حقيبتها وتعطيها له وهي تقول: اعط لأصدقائك ما اقترضته منهم
ظهر الضيق على وجه شوقي وقال: لا أريد من أبي شيئًا
الأم: إنه مالي أنا
شوقي : لقد كبرت وعلي أن أعتمد على نفسي
الأم : أنا أمك ومن حقك علي أن أقف إلى جوارك
شوقي : أرجوك يا أمي إنني أعمل وسأسدد ما اقترضته
شعرت الأم بخيبة أمل عندما رأت الإصرار في عيني شوقي

ولكنها عادت تقول: أين منيرة؟

شوقي : في حجرتها مع صديقاتها

الأم : هل ستمنعني من تقديم هدية لها بمناسبة الخطوبة؟... ثم قل لي هل أحضرت لها شبكة؟

شوقي : لا...دبلتان فقط

الأم : إذًا شبكتها علي

شوقي : ولكن

الأم : هذا ليس من أجلك إنه من أجل منيرة، لا بد أن تشعر بأن والدتك تقدرها ولا تنظر لها على أنها بنت فقيرة تكفيها دبلتان... لابد أن أقدم لها شيئًا يشعرها بأهميتها وينسيها رفض والدك لها.

بدا على وجه شوقي الاقتناع وراح يطرق طرقات خفيفة على حجرة منيرة ثم جاء بها إلى والدته.

ابتسمت الأم وهي تقبل منيرة وتقول: ألن تقولي لي تفضلي حتى الآن لم يقلها هذا العفريت لي

ضحكت منيرة وقالت : لابد أن الفرحة بقدومك هي التي أنسته...أهلًا بك تفضلي، سأذهب لأنادي أمي

الأم: انتظري أريد أوّلًا أن أريك شبكتك

قالت منيرة في براءة : شبكتي

راحت الأم تخرج قلادة ذهبية مرصعة ببعض الفصوص الملونة وهي تقول : تفضلي يا أحلى عروسة

لمعت عينا منيرة ببريق فرحة وامتنان وهي تقول : ولكن هذا كثير علي

الأم: ليس بكثير على العيون الجميلة التي استطاعت أن تخطف ابني مني

راحت منيرة تعانق الأم في حب وسعادة بعد أن منحتها ثقة في نفسها وفي أنها جديرة بشوقي.

****

وفي المساء كانت منال تجلس مع منيرة في حجرتها تضع لها المكياج وتصفف شعرها وقد تعالت الزغاريد في أرجاء المكان وراحت أكواب الشربات تدور على المدعوين، ارتدت منيرة ثوبًا ورديًا وأسدلت شعرها في تموجات هادئة تتناسب مع هدوء ملامحها

نظرت الأم لصورتها في المرآة وغمرتها السعادة التي تشعر بها أي أم في يوم كهذا..

أحست منيرة أن دقات قلبها تتزايد ولمعت عيناها ببريق السعادة عندما اقترب منها شوقي وقال لها : مبروك يا منيرة.

اكتسى وجهها بحمرة الخجل والسعادة وهي تضع يدها في يد شوقي وتتجه إلى حيث يجلس المدعوون..

كانت تبدو في غاية الجمال والرقة ومما يزيد من جمالها تعبيرات وجهها،كانت حساسة للغاية لدرجة لم تمكنها من إخفاء مشاعرها فراحت يداها ترتعشان عندما بدأ شوقي يلبسها دبلة الخطوبة وقد لاحظ شوقي ذلك فابتسم لها ابتسامة ذات مغزى جعلت قلبها يخفق خفقة قوية وهو يقول بصوت هامس : مبروك

وقف محمود وقد أخذه هذا المشهد في تفكير عميق وأحس بمشاعر عديدة تختلج داخل قلبه وأحس بحنين للفرشاة والألوان ليعبر بهما عن تلك المشاعر

اقترب من العروسين ليبارك لهما ثم توجه إلى حيث وقفت منال وقال وهو يمد يده ليصافحها : مبروك

منال : شكرًا على حضورك يا أستاذ محمود

محمود : يبدو أنك لا زلت غاضبة مني، أكرر اعتذاري مرة أخرى، لقد عاتبت نفسي كثيرًا على ما فعلته، أرجوك أن تقبلي اعتذاري، إنكم اليوم سعداء وأنا مثلكم ولا يشوب ذلك سوى غضبك مني، أليس من حقي أن تكتمل سعادتي؟

ابتسمت له منال ابتسامة تحمل معنى الصفح وراحت تقول : لا عليك يا محمود لقد نسيت ما حدث

تهلل وجه محمود وزاد خفقان قلبه وهو يقول : الآن فقط تأكدت أنك قبلت اعتذاري لأنك قلت يا محمود دون أستاذ.

****

عادت منال ووالدتها من الحفل في وقت متأخر من الليل... توجهت منال نحو غرفتها وهي تشعر أن ذهنها مشبعًا بالأفكار التي لن تمكنها من النوم...فتحت النافذة وأغلقت نور الحجرة...

الهدوء يغمر المكان والهواء ينساب في عذوبة، أحست بالرغبة في العزف على الجيتار ولكن خشيت أن توقظ الجميع.

تذكرت "محمود" وهو يعتذر لها...كان كالطفل الصغير الذي أخطأ ويعتذر لأمه... لمحت في عينيه نظرة حزن لا تنسى، وقتها أحست برغبة في معرفة سر هذا الحزن...هل هو بسبب حياته الشاقة...الوحدة...هل؟ هل؟

انتابها إحساس بأنها مسئولة عنه وعليها معرفة كل ما يدور بخلده..

مرت ساعة وهي لا تزال تقف أمام النافذة، انبعث منها هواء قوي أطار خصلات شعرها، انتابتها فرحة عارمة وراحت تضحك، وبدأت فكرة مجنونة تدور في رأسها، تريد أن تذهب الآن إلى شاطئ البحر، ولكن الآن ! وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل ! ماذا تفعل لو علم أحد من المنزل بخروجها في هذا الوقت المتأخر؟

لكن الفكرة ألحت عليها بصورة كبيرة وشعرت برغبة في الانقياد وراءها...

فتحت باب المنزل بهدوء وراحت تجري وهي تشعر بسعادة تملأ جوانب نفسها كلما تكاثرت الرياح وأطارت شعرها القصير ليتناثر على وجهها..

وصلت إلى الشاطئ... أرادت أن تكون أكثر تلقائية فخلعت حذاءها وراحت تلعب بقدميها في الرمال وهي تتأمل موج البجر وسحر المكان..

من على البعد لمحت شبحًا يقترب منها...أول مرة تشعر بالخوف منذ قررت هذه الفكرة المجنونة...ماذا لو كان سيوقع الأذى بها؟

ولكن ما إن اقترب حتى زال الخوف فقد كان القادم هو محمود..

نظرت إليه وقالت في دهشة : ما الذي أتى بك إلى هنا في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

ضحك محمود وقال : أجيبي أنت على الأقل أنا رجل ولا يخشى علي

منال : أحسست برغبة قوية في القدوم إلى هنا

محمود : نفس الشيء حدث لي هل تعرفين ما معنى ذلك؟

لكن منال لم تلتفت لسؤاله فقد أحست بالحرج من هذا الموقف وأسرعت تقول : عن إذنك

محمود : هل ضايقك وجودي؟

منال : لا يصح أن نبقى معًا في هذا الوقت المتأخر وفي هذا المكان.

محمود: معك حق سأوصلك

منال: هل جننت...آسفة أقصد الوقت متأخر وإذا رآنا أحد سيسيء الظن بنا

محمود: كنت فقط أخشى عليك من العودة بمفردك وأردت أن أحميك

خفق قلب منال بشدة لهذه الكلمة وأحست أنها اقتربت كثيرًا من مشاعرها

منال: شكرًا لك يا محمود عن إذنك

ثم هرولت نحو المنزل والخوف يسيطر عليها من أن يكون والدها قد استيقظ ولم يجدها، أدركت الآن أنها كانت فكرة حمقاء

وصلت المنزل...أحست بارتياح عندما وجدت الجو ما زال هادئًا

ارتمت على فراشها وهي تتذكر كل ما حدث...ترى هل حقًا

هناك انسجام روحاني بينهما لدرجة التفكير في نفس الشيء وفي نفس الوقت؟

تذكرت إحساسها بالمسئولية نحوه وتذكرت كلماته حين قال لها : " كنت أود أن أحميك"...أحست بارتياح عميق لتلك العبارة، إنه بلا شك مهتم بها...لا.. إنه يحبها أصبحت الآن متأكدة من ذلك وإلا فلمَ تلك اللهفة التي يحدثها بها ؟ ولماذا كذب عليها وادعى أن له صديقًا في كليتها ليذهب ويراها؟ ولماذا؟ ولماذا؟ ولماذا؟

إنه الحب الذي يملأ قلب الإنسان ومهما حاول إخفاءه فلا محالة من ظهوره في كلمة...تصرف...نظرة عين...

بدأت تسأل نفسها عن مشاعرها هي...مترددة في الإجابة..

إن ما تشعر به نحوه هو شعور بالمسئولية وبرغبة في رعايته... ربما يكون نوعًا من الأمومة، فهي تشعر بعمق حاجته إليها، لكن هذا الشعور تطور اليوم وأضيف إليه شعور جديد...شعور بحاجتها هي إليه وإلا فلم أحدثت عبارة " كنت أود أن أحميك" كل هذا الأثر...الارتياح .. الأمان ... فلتنتظر حتى يكتمل نمو هذه المشاعر الجنينية وتصبح قادرة على التعبير عن نفسها..

كان هذا هو يوم الجمعة، استيقظت أم شوقي مبكرةً وأعدت طعام الإفطار وكوبًا من الشاي لزوجها قبل ذهابه إلى العمل..

راحت تقلب الشاي وهي تقول في تردد: الحفلة كانت جميلة رغم بساطة تكاليفها، لم يكن ينقصها سوى والد العريس.

لم يجبها الحاج وظل يأكل في صمت.

الأم: هل ستحرم ابنك من بيته إلى الأبد؟

الأب: هو الذي اختار ذلك وترك البيت بإرادته

الأم: تركه بعد أن أهنته بكلماتك

الأب: هو ابني ومن حقي أن أوجهه إذا أخطأ

الأم: توجهه إلى الصح لكن لا تفرضه عليه

الأب: يومًا من الأيام سوف يندم على ما فعل

ثم توجه نحو باب المنزل ومن ورائه الأم وهي تقول في لهفة: هل أقول له أن والدك لا يمانع في عودتك للمنزل

الأب: لن يعود إلا إذا ترك منيرة

الأم: هذه قسوة

الأب: أغلقي هذا الموضوع ولا تحدثيني فيه مرة أخرى

شعرت أم شوقي بخيبة أمل كبيرة بعد حديثها مع زوجها وأدركت أن عودة شوقي أصبحت مستحيلة مما جعل دموعها تسيل على وجهها دون قدرة منها على منعها ثم نظرت إلى صورة شوقي المعلقة على الحائط وهي تقول: لماذا يا شوقي؟ ألم تجد في الدنيا غير منيرة لتتزوجها؟

كان صلاح قد استيقظ، شعرت به أم شوقي فراحت تجفف دموعها حتى لا يراها صلاح وتعكر صفاء يومه خاصة أن هذا أول يوم في إجازة نصف العام

صلاح: صباح الخير يا أم العريس

أم شوقي: سأذهب لإعداد الإفطار

ثم هرولت نحو المطبخ قبل أن تنفجر بالبكاء أمام ابنها

أما صلاح فقد ذهب إلى غرفة منال وراح يطرق على الباب طرقاته المعتادة

منال: ادخل يا صلاح

فتح صلاح الباب وهو يقول: صباح الخير يا منال ظننت أنك لا زلت نائمة

منال: استيقظت منذ حوالي ساعة

صلاح: وما زلت تجلسين في الفراش ما هذا الكسل ؟

منال: وأنت ألم تكن نائمًا عندما عدنا من الخارج؟ لماذا

إذا استيقظت متأخرًا ؟

صلاح: على الأقل أنا فور استيقاظي فتحت نوافذ الحجرة ورتبت فراشي وجئت لأوقظك...والآن أخبريني هل كانت حفلة جميلة؟

منال: نعم...هي حقًا بسيطة جدًا لكن الفرحة التي على الوجوه كانت أكبر من أي شيء، لماذا لم تحضر يا صلاح إن صديقك محمود حضر وأنت...أخوه...لا تحضر

صلاح: أنا غير مقتنع بهذه الخطبة وأتوقع لها الفشل لذلك لم أحضر

ثم صمت قليلًا وعاد يقول : لكن لماذا حضر محمود؟

منال: لأنه مقتنع

صلاح: تعليل منطقي

منال: ولا بد أن شوقي هو من دعاه...أعتقد أن شوقي كان أنسب منك لصداقة محمود

صلاح: وأعتقد أنك أنسب لصداقته منا نحن الاثنين

شعرت منال بحرج وقالت مدافعة عن نفسها: صداقة !

هل جننت يا صلاح ! صداقة بيني وبين محمود

صلاح: أعني أنكما متقاربان في أشياء كثيرة...ولكن

دعينا نتكلم في الفكرة هل يمكن أن تقوم صداقة حقيقية بين شاب وفتاة؟

منال: أعتقد أن الذي يمكن أن يكون بينهما زمالة أو أخوة أو..

صلاح: أو مراهقة...أقصد كما يقولون حب

منال: ألا تعترف بالحب؟

صلاح: بمقاييسك أنت ومحمود أو بمقاييس شوقي لا أعتقد

احمر وجه منال وقالت بعصبية: لماذا تقرن بيني وبين محمود؟

تعجب صلاح من عصبية أخته وقال :قلت لك من قبل أنكما متقاربان في أشياء كثيرة لذلك قرنت بينكما

شعرت منال بارتياح وقالت :وما هي مقاييسك أنت؟

صلاح: التكافؤ في كل شيء...أريد حبًا عقلانيًا ..حبًا يكون في متناول يدي، الحب السهل...لا أريد أن أحب عروس البحور أو فتاة في سجن القراصنة أظل أحارب من أجل أن أفوز بها وربما لا أنجح وأظل شهيد الذكريات..

منال: هذا ليس حبًا، هو محاولة اختيار فتاة مناسبة إذا

وجدتها أقنعت نفسك أنك تحبها لتشعر أنك لم تفقد مشاعرك وأنك تملك قلبًا

ذهب صلاح في تفكير عميق وشعر بضيق في صدره فبدأ بالانصراف من الحجرة

راحت منال تناديه قائلة: هل أغضبتك؟ آسفة؟ لا أدري لماذا قلت تلك الكلمات

لم يلتفت صلاح لكلمات منال وتوجه نحو غرفته

فاستوقفته قائلة :صدقني لم أكن أقصد

صلاح: لا عليك أريد فقط أن أبقى بمفردي لبعض الوقت، ثم أغلق باب حجرته وراح يتذكر كلمات منال " لتشعر أنك لم تفقد مشاعرك وأنك تملك قلبًا"

هل هو يشعر أنه فقد مشاعره؟

أحس أن منال كشفت الستار عن إحساس حقيقي كان يحاول تجاهله...إحساسه بأنه أصبح بلا مشاعر، فهو كثيرًا ما يشعر أن إحساسه حتى نحو أمه غير موجود ويحاول إقناع نفسه بوجوده...إن ما يربطه بوالدته هو شعوره بالواجب تجاهها فقط ، وهو يعاملها معاملة حسنة ولا يحاول إغضابها مهما حدث، كل ذلك يفعله لأن من

المفروض أن يفعله دون تدخل من المشاعر...ونفس الشيء بالنسبة لوالده وأخوته...
هذه الحقيقة تلح عليه وحاول كثيرًا تجاهلها لكن كلمات منال أيقظتها داخله، يا لها من بارعة، إن لديها فراسة قوية تمكنها من فهم من يتحدث معها من خلال كلماته وتعبيرات وجهه...أحس بألم في رأسه من التفكير في هذا الموضوع فقرر الذهاب إلى محمود عله ينسى تلك الأفكار..

****

كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساء عندما حضر شوقي لزيارة منيرة...لم تكن تتوقع حضوره...أشرق وجهها بابتسامة سعادة وأحست بنبضات قلبها تتسارع وهي تردد اسمه في رقة وكأن حروف اسمه تعانق شفتيها... وقف هو مشدود أمام نظرة عينيها التي تتدفق حنانًا استطاع أن يحوله في لحظة إلى مخلوق آخر يسير فوق السحاب لا على الأرض...دعته للدخول ثم ذهبت لإخبار والدتها ودخلت حجرتها لبعض الوقت،خرجت وهي ترتدي القلادة الذهبية التي أهدتها لها والدته، ثم قالت وهي تنظر لشوقي: جميلة حقًا ويبدو أن ثمنها غالٍ.

شوقي: ربما تكون غالية لكن ليست أغلى منك

منيرة: لكني غير معتادة على ارتداء الذهب، ما رأيك لو نبيعها ونشتري بثمنها بعض الأشياء التي سنحتاجها؟

شوقي: لا لن أفعل ذلك، سأبحث عن عمل إضافي وأدخر المال اللازم للشقة والجهاز

منيرة: وما المانع أن نستعين بها ؟

شوقي: لا تشعريني بالعجز، هذه القلادة هدية أمي لك وكان من المفترض أن أحضرها أنا

منيرة: أنت هديتي الحقيقية

نظر لها شوقي بسعادة والتقت عيناهما لبعض الوقت
فراحت منيرة تدير عينيها على استحياء وهي تقول: إن ما حدث كان حلمًا كبيرًا في نظري ولم أكن أتوقع أن يتحقق في يوم من الأيام
شوقي: أعدك أن أجعلك أسعد إنسانة في هذه الدنيا
منيرة: أنا فعلًا أسعد إنسانة لأنني معك
ابتسم لها شوقي في حنان ثم قال: ما رأيك أن نخرج للتنزه بجوار الشاطئ ؟
تهلل وجه منيرة من الفرحة وقالت ببراءة: أنا وأنت ؟
شوقي: هل يمانع والدك؟
منيرة: لا...ولكنه نائم الآن، سأخبر والدتي لتوقظه فهو كان يريد رؤيتك وأخبره أنت بموضوع الخروج.

****

كانت إجازة نصف العام قد انتهت، استعدت منال لمغادرة المنزل وقد امتلأت حيوية ونشاطًا ، فتحت نوافذ الحجرة وراحت تضع في حقيبتها بعض الأوراق والأقلام ثم خرجت إلى الصالة، كان صلاح واقفًا بملابس البيت

صلاح: ما كل هذا النشاط ؟

منال: البداية يكون لها دائمًا جمالها

صلاح: معك حق، كنت أود أن أسير معك لكن كما ترين، ثم إن محاضرتنا ستبدأ اليوم بعد الواحدة

منال: لو كنت مكانك لما استيقظت الآن أبدًا

غادرت المنزل، سارت بخطوات رشيقة نحو الكلية، مضى وقت وهي تسير تتأمل الطرقات من حولها وتراودها الأفكار في موضوعات شتى وما إن دخلت من باب الكلية حتى رأت أمامها مفاجأة؛ إنه محمود....

تظاهرت بعدم رؤيتها له ولكنه استوقفها وقال لها والسعادة تشرق في عينيه: صباح الخير يا منال

منال: صباح النور، هل جئت لرؤية صديق لك؟

محمود: لن أكذب عليك مرة أخرى...جئت من أجلك

منال: من أجلي...وماذا تريد مني؟

محمود: محتاج إليكِ...محتاج لأن أتحدث معكِ

منال: ولكن عندي محاضرة الآن
محمود: سأنتظرك
منال: وبعدها محاضرة ستستمر ثلاث ساعات
محمود: قلت سأنتظرك
أحست منال بلهفة محمود وإصراره على الحديث معها ... شعرت بسعادة لا يمكن وصفها، لكنها حاولت جاهدة إخفاء تلك المشاعر وقالت له: ستتأخر على محاضراتك
محمود: تفضلي وسأكون في انتظارك داخل الكافتريا
هذه المرة لم تتمكن منال من إخفاء ذلك البريق الذي لمعت به عيناها وانصرفت إلى المدرج وهي تردد في ذاكرتها الحديث الذي دار بينها وبين محمود وكأنها تخشى أن تنسى أيًا من تفاصيله أحست بارتباك عندما لمحتها زميلة لها وهي تبتسم لنفسها وقالت مداعبة: من هو؟
ارتبكت منال وتغير لون وجهها وقالت: ماذا تقصدين؟
الزميلة: الذي أخذ عقلك وجعلك تبتسمين لنفسك
منال: لقد تذكرت أخي صلاح وهو مستيقظ من النوم اليوم كان منظره مضحكًا جدًا
الزميلة: ربما
جلست منال في آخر المدرج وكأنها تهرب ممن حولها

وعادت كلمات محمود تتردد داخل أذنها... بدأت توبخ نفسها ...أحست بمدى تهورها عندما وافقت على أن تتحدث معه... نعم وافقت بالتزامها الصمت ..

انتهت المحاضرة بعد وقت ثقيل ثقيل عليها، لم تنتظر المحاضرة الثانية..

دخلت الكافيتريا وهي تشعر بارتباك شديد وكأن كل الموجودين ينظرون نحوها ويعرفون ما يدور في نفسها الآن...

وجدته جالسًا في أحد الأركان، اقتربت منه...شعرت برعشة تسري في يدها

محمود: تفضلي

منال: أفضل أن نتحدث في حوش الكلية

محمود: ولكنه مزدحم والمكان هنا هادئ

منال: أرجوك لا أستطيع التحدث معك هنا

ابتسم محمود ابتسامة جعلت قلبها يخفق ثم قال لها: كما تشائين

ثم انصرفا معًا ووقفا في أحد أركان الحوش

محمود: لِمَ هذا الارتباك ؟

منال: أبدًا لست مرتبكة

محمود: ولمَ تكذبين؟
منال لا أكذب...ماذا كنت تريد مني؟
محمود: منال...أنا محتاج إليكِ...حياتي كلها محتاجة إليكِ...منذ مدة وأنت تتسللين داخل تفكيري وقلبي حتى تمكنت منهما
منال...أنا أحبك
خفق قلب منال خفقة قوية ولم تعد تشعر بأي شيء من حولها وكأنها عزلت هي ومحمود عن كل الموجودين..
صمت محمود وصمتت هي أيضًا ولم تجبه بكلمة واحدة..
أحست بدفء يسري في شرايينها...مزيج غريب من السعادة وعدم التصديق أخرستها المفاجأة وروعة الاعتراف..
وخلال صمتها راح يتأمل تعبيرات وجهها ليحاول أن يعرف رد فعلها بينما هي كانت تنظر في اتجاه آخر...
وبعد فترة نظرت إليه...التقت عيونهما...أحست بمشاعر تفيض حنانًا وهي ترى عينيه التي تذوب حبًا.
محمود: هل من حقي أن أسمعها منك؟
صمتت منال ولم تجب فامتلأ قلب محمود بالقلق ثم

قال لها: هل أنت مرتبطة

منال: لا

محمود: لا تحبينني؟

منال: لا...أنا..

محمود: أكملي...لماذا تحرمينني من سماعها...لا تتصوري قيمة هذه الكلمة عندي أرجوك لا تحرميني منها

ابتسمت منال في خجل جميل ولم تتمكن من النطق بأية كلمة.

تهلل وجه محمود بالسعادة وراح يقول وهو لا يكاد يصدق نفسه: لن تندمي أبدًا أعدك أن أكون الحبيب المخلص الذي يضحي من أجلكِ ولا يرضى بسواك مهما طال العمر...سأحافظ عليك ولن أبخل عليكِ بأي شيء يجعلك سعيدة...سأعمل ليل نهار كي أتمكن من الارتباط بك..

منال: كفى يا محمود هذا أكبر من قدرتي على التصديق .. أشعر أن الجميع ينظرون لي وكأنهم يسمعون كل ما يدور بيننا.

محمود: إذا كان لا يضايقك تعالي لنتحدث خارج الكلية

منال: ولكن

محمود: هيا بنا

....

عادت منال إلى المنزل في الثالثة مساء أحست وهي تدخل من باب الشقة أن إنسانة أخرى هي التي تدخل...
ذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب...راحت تتذكر كل ما حدث...كأنه حلم...حلم رائع وغريب... ارتباكها...لهفته عليها... إنه أول حب لها...تشعر بأن كل ما تفعله اليوم غريب عليها لأنها تفعله لأول مرة... أول مرة تنطق فيها بكلمة الحب...أول مرة تحس بهذا الارتباك...أول مرة تسير بمفردها مع شاب...وأول مرة تشعر فيها بكل هذه السعادة...
ما زالت غير مصدقة...تتمنى أن تحكي لأحد ولكن...لا تستطيع أن تحكي لأمها أو أخيها ومستحيل أن تحكي لأبيها...تدرك أنهم لن يوافقوا على ما حدث منها...
ولكنها سعيدة...ويكفي أن تحتفظ بسعادتها لنفسها لا.. تذكرت الآن صديقًا عزيزًا يمكنه أن يشاركها سعادتها...إنه الجيتار..

احتضنته بيديها وراحت تعزف مقطوعة غاية في النعومة والرقة...وتدور في الحجرة.....

دخلت عليها والدتها فرأتها مغمضة العينين ومنهمكة في العزف، انتظرتها حتى فرغت من عزفها ثم قالت:

جميل...جميل جدًا

منال: أعجبتك؟

الأم: نعم، ولكن لماذا لم تسألي عن الغداء كعادتك ؟

منال: لست جائعة

الأم: لم تتناولي الإفطار وعدت من الكلية متأخرة ولا زلت غير جائعة !! هل أنت مريضة؟

منال: بالعكس أنا في أسعد حال...

ثم شردت منال عندما تذكرت "محمود" وابتسمت لنفسها

الأم: أشركينا معك

منال: أبدًا تذكرت شيئًا حدث

الأم: ما هو

منال: جائعة يا أمي

الأم: تهربين من الإجابة..

حسنًا سأذهب لتحضير الطعام

منال غارقة في سعادتها...آه..عليها تدوين تلك المشاعر..أحضرت الأجندة الخاصة بمذكراتها وجلست على الفراش وراحت تخط تلك الكلمات :

"أحبك...أقولها صريحة واضحة لأنك تستحقها..لا أصدق أن حلمي قد تحقق.. أنا وأنت يربطنا شيء واحد.. تصارحنا فابتسم الوجود لنا وتلونت حياتنا بألوان أكثر بهاء وإشراقًا..حتى يخيل إلي أن التعاسة لن تعرف طريقنا بالمرة.. ما أروع كلمة الحب التي تقولها بعينيك..لا..ليس حلمًا..بل حقيقة.. امسح دموعك يا قلبي فقد آن لك أن تعيش الحياة.. لا يجب أن تضيع لحظة واحدة بدون أن أكون معك... حبيبي...هذه الكلمات لي ولك دون سوانا.. إنها الكلمات الأولى التي أخفيها عن الناس لأنها... شيء خاص جدًا.."

****

عاد محمود إلى المنزل وهو يشعر بحماس غير عادي وبإقبال على الحياة... وجد يده تبحث عن الأوراق والألوان.. وراحت أصابعه تخط رسومات بلا معنى لكن ألوانها زاهية...ثم ألقى ما بيده وتمدد على الأريكة الخشبية الموجودة في صالة المنزل، وجد نفسه يضحك بصوت مرتفع وهو يتذكر ما حدث اليوم...يصمت تارة ويغمض عينيه تارة أخرى...يتخيلها أمامه ويحدثها وأحيانًا أخرى يضحك...

مر الوقت دون أن يشعر به وبدأت الشمس تغيب، تذكر أنه لم يتناول طعامًا منذ الصباح وأحس بجوع شديد، فقام من فراشه وأحضر بعض الطعام وراح يلتهمه بحماس، ثم ارتدى ملابسه وهو يدندن بأغنية مرحة، كان ينوي الذهاب إلى صديقه صلاح، ترى هل سيتمكن من رؤيتها ؟

وصل إلى المنزل...كان صلاح يقف في الشرفة عندما طرق محمود الباب، جرت منال لتفتح فقد توقعت حضوره تهلل وجهها بالسعادة وأحست بخفقان قلبها ونبرات صوتها تخرج مرتعشة وهي تقول: أهلًا يا محمود

ترك صلاح الشرفة وتوجه نحو صديقه الذي اقترب منه

وراح يعانقه وهو يقول: لكم اشتقت لك

صلاح: تبدو سعيدًا بشكل غير عادي، تعالَ معي إلى الحجرة لأعرف سر هذه السعادة

استلقى محمود على سرير صلاح وراح ينظر إلى سقف الحجرة ويبتسم

صلاح: ماذا بك يا محمود ؟

محمود: ما رأيك لو نخرج إلى الشاطئ ؟

صلاح: ليس قبل أن تخبرني بما حدث لك اليوم في الصباح لم تأتِ للكلية وكنت سأحضر لزيارتك اليوم لأطمئن عليك ولكنك سبقتني وحضرت مغرقًا في السعادة وتريد أن تذهب إلى شاطئ البحر...ماذا بك؟ هل هي أعراض الحب؟

محمود: إنها ليست أعراض الحب إنها أعراض السعادة في الحب

صلاح: هكذا...إذا هيا إلى الشاطئ لتخبرني بكل شيء

كان الجو هادئًا ومظلمًا إلا من بعض الأنوار المنبعثة من منازل الصيادين ومن السفن المارة في البحر

صلاح: من هي؟

محمود: هذا سر...كل ما أستطيع أن أقوله لك أنني

أحبها...لا... بل أذوب حبًا فيها.. واليوم تأكدت من مشاعرها

صلاح: لذلك لم تأتِ إلى الكلية

محمود: نعم

ثم استلقى محمود على الرمال الباردة وخلع حذاءه وراح يدندن بلحن رومانسي بينما أخذ صلاح يتأمله في صمت وهو يقول في نفسه: كل هذه السعادة من أجل الحب؟ ليتني أجربه..

****

كانت منيرة تعد طعام العشاء مع والدتها ببنما جلس شوقي مع والدها في الصالة

الوالد: ألم يأتِ الوقت المناسب لتذهب إلى والدك وتحاول استرضاءه لتعود إلى أسرتك وبيتك ؟

شوقي: هو الذي أصر على أن يكون تركي لمنيرة شرطًا لعودتي إلى البيت، وأنا لن أترك منيرة أبدًا

الوالد: ولكن لا بد أن تحاول معه هو والدك أولاً وأخيرًا

شوقي: ليس قبل أن أثبت له أنني قادر على الاعتماد على نفسي

الوالد: إنه والدك يا شوقي ولا يجب أن تتعامل معه بهذه القسوة، هل تريده أن يأتي هو بنفسه ليطلب منك العودة؟ هو الكبير المعتز بنفسه؟

إنه أب ورغم ما يبديه من إصرار على رفض هذا الزواج إلا أنه يتألم لأنك بعيد عنه

هنا جاءت منيرة وهي تحمل صينية الطعام وتقول: والدي معه حق وأنا مستعدة أن أذهب معك إليه

الوالد: لا...إذا رآكم معًا ستزداد المشكلة، ليس قبل أن يرضى عن هذا الزواج

شوقي: ليته كان مثلك

الوالد: لو كان مثلي لكنت أنت الآن صيادًا ولم تكمل تعليمك

شوقي: التعليم إرادة وذكاء قبل أي شيء آخر و هناك نماذج كثيرة تفوقت رغم صعوبة ظروفهم المادية

ثم نظر إلى منيرة وخطرت بباله فكرة جعلت ابتسامة ترتسم على وجهه ثم قال: ما رأيك يا منيرة لو تكملي تعليمك؟

منيرة: ولكني نسيت معظم ما تعلمته

شوقي: أنا أساعدك في ذلك

منيرة: التعليم في الكبر كالنقش على الحجر

شوقي: لكنك لا زلت صغيرة

منيرة: مادامت هذه هي رغبتك فلا مانع عندي

شوقي: وسنبدأ من الآن

****

لم تنم منيرة في هذه الليلة فقد كانت تفكر في ما قاله شوقي لها، يريد أن يرفعها إلى مستواه...ما المانع؟ ما الذي يضايقها في ذلك؟

لكن المفروض أنه يحبها كما هي دون أن تكون لديه رغبة في أن يعدلها ويشكلها كي تتلاءم معه...وربما يفعل ذلك من أجل أهله حتى يرضوا عن زواجه منها..

وحتى إذا تعلمت ستظل منيرة الفقيرة وستظل الفروق بينهما قائمة..

تشعر بالخوف...الآن فقط بدأت تشعر بالخوف..

تخشى أن يأتي اليوم الذي يحتقرها فيه إذا بقيت كما هي، لا بد أن تصل إلى مستواه أن تصبح مثله...عقلها كعقله..

هل يأتي اليوم الذي يموت فيه حبه لها؟

لا مستحيل أن يأتي ذلك اليوم أبدًا لأنه يحبها بصدق...يحب روحها وصفاتها..

لن يأتي ذلك اليوم...ستكمل تعليمها كما طلب وسيظل يحبها بقلبه وعقله معًا

****

هذا اليوم أيضًا لم يذهب محمود إلى كليته وتوجه إلى كلية منال.. عندما رأته شعرت بسعادة قوية وخفق قلبها خفقة ذات معنى

منال: اليوم أيضًا يا محمود

محمود: أريد أن أراك كل يوم

منال: وكليتك؟ لا يا محمود لا أريد أن تضيع مستقبلك بسببي

محمود: يمكنك أن تحافظي عليه وأن أراك أيضًا كل يوم

منال: كيف؟

محمود: نلتقي في الحديقة القريبة من هنا بعد انتهاء المحاضرات

منال: لكن..

محمود: مرة أخرى لكن...أتمنى أن تعلني موافقتك يومًا دون أن يسبقها اعتراض وأنا واثق أنك ستوافقين فلمَ التردد؟

منال: وما الذي يجعلك واثقًا ؟

محمود: كلمة الحب التي قلتِها لي بالأمس

منال: وهل كلمة الحب تجعل من حقي أن أقابلك كل يوم...إن ما بيننا ارتباط غير رسمي

محمود: ما بيننا أقوى من أي ارتباط رسمي...لقد أصبحنا كيانًا واحدًا منذ أن تصارحنا بمشاعرنا

منال: الإحساس شيء والسلوك شيء آخر

محمود: أفهم من ذلك أنك غير موافقة

لم تستطع منال أن تجيب...إنها بالفعل تريد أن تراه كل يوم...عقلها يراوغ ويرفض ذلك...يحاول منعها بقوة لكن مشاعرها تأبى الانصياع له...أسلمها ذلك الصراع إلى صمت طويل.....

بعد فترة قطعته قائلة: اذهب الآن إلى كليتك

محمود: سأنتظرك الساعة الثانية...أمامك فرصة لتفكري...ربما..

ثم انصرف تاركًا منال في حيرة من أمرها حاولت جاهدة أن تركز تفكيرها في المحاضرة بلا جدوى..

مر الوقت وأشارت الساعة إلى الواحدة والنصف...شعرت بحنين لأن تراه وتتحدث معه...بخطى مترددة سارت في اتجاه الحديقة، ما زال هناك وقت ...ربما لا تجده وتضطر للجلوس بمفردها.. دخلت الحديقة...أحست بفرحة عارمة عندما وجدته قد سبقها..

ظلا صامتين فترة حتى قال لها: تفضلي

جلست منال واستمرت في صمتها

محمود: أنا سعيد جدًا أنك أتيت

منال: لم أقوَ على العودة إلى المنزل دون أن أراك...لم أستطع أن أتركك تنتظر

محمود: هل تثقين بي؟

منال: أكيد وإلا لما كنت أجلس معك الآن

محمود: إذًا لا تخافي من مقابلاتنا فأنا أحترم مشاعرك وأحترم مشاعري ولن أتسلى بالحب كما يفعل البعض

منال: أخاف من المستقبل...أشعر بالخوف كلما تخيلت أن حبنا قد يصبح يومًا مجرد ذكرى...

محمود: لا تكوني بهذا التشاؤم...ثقي أنني لن أتخلى عنك وإذا لم يرد الله أن تكوني من نصيبي فلن أرتبط بأحد غيرك

منال: وأنا أعدك أن أنتظرك حتى نهاية العمر

****

جلست والدة شوقي مع زوجها بعد أن صبت له كوبًا من الشاي، راحت تحدثه بشيء من التردد قائلة: ألن ترضى عن شوقي ويعود ليعيش معنا مرة أخرى ؟

الأب: هو يعلم ما الذي يرضيني

الأم: ولكن الخطبة تمت وواضح أنه لن يتركها...هل ستتركه يعيش بعيدًا عنا إلى الأبد؟ إنه ابنك أم نسيت؟

الأب: لم أنسَ...هل أذهب له لأعيده؟ هو الذي أخطأ وإذا أراد أن يعود للمنزل فليعد ولكني لن أساعده بمليم واحد في زواجه..

تهلل وجه الأم من الفرحة وراحت تقول: شكرًا يا حاج...سأذهب إليه لأعيده

ثم هرولت ترتدي ملابسها وتذهب إلى صغيرها حيث يقطن في أحد الفنادق

وهناك أخذته بين أحضانها وراحت تربت على شعره وهي تقول: لقد وافق والدك على عودتك للمنزل

شوقي: هل اقتنع بزواجي من منيرة

الأم: لا...إنه يقول لن أدفع مليمًا واحدًا في زواجه

شوقي: وأنا لا أريد ماله ولا أريد بيته

الأم: لا يا شوقي إنه بيتك لا تجعل الخلافات بينكما

تكبر، هو أبوك رغم كل شيء، وعنادك هذا وخصامك له لا يرضي الله..

شوقي: وهل يرضي الله أن يقف بيني وبين زواجي من إنسانة لا ذنب لها في فقرها

الأم: عد من أجلي أنا، من أجل منال التي أصبحت شاردة منذ تركت المنزل

صمت شوقي لبعض الوقت ثم قال باستسلام: سأعود من أجلكم

****

في ذلك الوقت لم يكن موجودًا بالمنزل سوى صلاح ، راح شوقي يطرق على الباب طرقات هادئة عرفها أخوه فجرى نحو الباب وفتحه..

تعانق الاثنان وراح صلاح يقول مداعبًا: أخيرًا عدت ؟

شوقي: أخيرًا رضي الوالد عني وسمح لي بالعودة إلى مملكته

صلاح: منال ستفرح جدًا برؤيتك

شوقي: ولكن أين هي ؟

صلاح: لم ترجع بعد

شوقي : لم يسبق لها أن تأخرت عن المنزل لأكثر من الرابعة

صلاح: ربما تأخرت في محاضرات اليوم

شوقي: ربما

هنا سمعوا طرقات على الباب فنهض شوقي ليفتح، عندما رأته منال تسمرت في مكانها وألقت ما بيدها من كتب ثم قالت: إياك أن تقول أنك تركت منيرة

شوقي: لا لن أتركها أبدًا

ضحكت منال وراحت تعانقه وهي تقول: إذًا أهلًا بك في بيتك

شوقي: أين كنتِ ؟ لماذا تأخرت اليوم؟

ارتبكت منال من سؤاله ثم قالت بسرعة: كنت أتجول في السوق مع صديقة لي، أخبرني أولًا ما هي أخبار منيرة؟

شوقي: بخير والحمد لله سأذهب لها في الصباح

صلاح: فلتوقظني غدًا معك فأنا أريد أن أذهب إلى محمود، يبدو أنه سيجن من الحب...إن اليوم هو ثاني يوم يغيب فيه عن الكلية على الرغم من أننا امتحنا اليوم مادة هامة

شعرت منال بالقلق عندما قال صلاح ذلك، إذًا لقد كذب عليها محمود ولم يذهب إلى الكلية...ثم تذكرت باقي كلام صلاح فقالت: سيجن من الحب !!

صلاح: نعم ...إنه يحب...هو الذي أخبرني بذلك...متهور، هل هذا وقت للحب، ويبدو أنها متهورة مثله وربما تترك هي الأخرى محاضراتها لتكون معه

منال: وهل للحب وقت

صلاح: نعم لكل شيء وقت، للحب وقت...وللأكل وقت...أنا جائع جدًا

شوقي: إنك تهرب من المناقشة بهذا الأسلوب الساخر وأنا لست معك في أن للحب وقتًا ولا مع محمود في تصرفاته

منال: إن فرحة الإنسان بحبه الجديد تجعله يغيب عن كل

ما في واقعه

شوقي: لكن لا بد أن يعود لواقعه مرة أخرى...يعود إليه بروح جديدة...روح إنسان يحب.

****

عاد والد شوقي في ذلك اليوم من عمله متأخرًا، كان شوقي يجلس مع صلاح في الشرفة يلاعبه الشطرنج، دخل الوالد وما إن رأى شوقي حتى تجهم وجهه، اقترب من الشرفة بينما توقف شوقي وصلاح عن اللعب...

راح يقول موجهًا حديثه لصلاح: أليس عندك مذاكرة؟

صلاح: لا فغدًا الجمعة

الوالد: وما الذي يمنع أن تذهب إلى حجرتك

ففهم صلاح أن والده يريد أن ينفرد بشوقي فانصرف إلى حجرته

كان شوقي واقفًا لا ينطق بكلمة واحدة

الوالد: طبعًا أخبرتك والدتك أنني لن أساعدك في زواجك من منيرة

شوقي: نعم...وأنا لا أريد مساعدة

الوالد: ما زلت تكابر، لو تركتها لزوجتك من هي أفضل منها ومعها شهادة عالية

شوقي: منيرة ستكمل تعليمها، أما الغنى فهو ليس ميزة إنه مجرد رزق...ولا يجعلني أفضل الأخرى على منيرة

الوالد: ستندم...اغرب عن وجهي الآن

غضب شوقي غضبًا شديدًا وهم بترك المنزل لولا تذكر

كلمات أمه وهي ترجوه أن يعود، فقال لنفسه مهما يكن هو في النهاية والدي وعلي أن أتحمل.

****

في الصباح خرج صلاح لزيارة محمود بينما استيقظ شوقي متأخرًا من النوم فقد كان هذا هو يوم الجمعة

نهض من فراشه وتوجه إلى والدته وحياها تحية الصباح ثم طرق باب غرفة منال فأذنت له بالدخول

كانت منال قد استيقظت مبكرةً هذا اليوم وجلست أمام نافذة الغرفة

شوقي: صباح الخير يا منال

منال: صباح النور، كل هذا نوم...أعتقد أنك لم تذهب اليوم إلى شاطئ البحر لرؤية الشروق كعادتك

شوقي: لقد نمت متأخرًا بالأمس

منال: طبعًا كنت تثرثر مع صلاح

شوقي: ومع ذلك فقد استيقظ هو مبكراً وذهب إلى محمود

منال: وأنت هل ستذهب لمنيرة اليوم؟

شوقي: نعم سأذهب...آه لقد تذكرت...إنها طلبت مني أن أدعوكم على الغداء

منال: حقًا ؟ سيكون هذا رائعًا جدًا، وسأحضر معي الجيتار

شوقي: سأذهب الآن لأحضر صلاح واستعدي أنت ووالدتك

فرحة منيرة وأسرتها لا تكاد توصف بحضور أهل شوقي إلى منزلهم، وتفانوا في الترحيب بهم مما جعل والدة شوقي تشعر براحة كبيرة لهذا الارتباط، وبعد أن تناولوا طعام الغداء نهضت منال لتساعد منيرة في غسيل الأطباق، حاولت منيرة ثنائها عن ذلك لكن منال أصرت
راحت منيرة تقول لمنال في سعادة: أعلمت أنني سأكمل تعليمي
منال: نعم لقد أخبرني شوقي، ألف مبروك يا منيرة، إنها خطوة ناجحة فعلًا وبقدر تفوقك في هذا العمل بقدر ما يثبت ذلك مدى حبك لشوقي
كانت نافذة المطبخ مفتوحة، لمحت منال شوقي يقف خارج المنزل وينظر ناحية منيرة فراحت تقول مداعبة: هناك من ينتظرك بالخارج
نظرت منيرة من النافذة وقالت على استحياء: عندما ننتهي من العمل
منال: لا أخرجي وأنا أكمل
فضحكت منيرة وقالت سوف أرد لك الجميل عندما تصبحين مثلي، ثم غادرت المكان تاركة منال التي جعلتها تلك الكلمات تتذكر "محمود"

في الخارج كان شوقي واقفًا ينتظر، لمح منيرة قادمة، تهلل وجهه من السعادة ثم قال: لقد انتظرتك بفارغ الصبر.
منيرة: كان لدي عمل، ثم هل يصح أن يقوم الضيوف بأعمال المطبخ وأنا لا أفعل شيئًا؟
شوقي: أوّلًا منال ليست ضيفة، ثم إنها مستعدة أن تقوم بضعف ما تفعله الآن من أجل إسعاد اثنين متحابين
أدارت منيرة وجهها خجلًا وسارت في اتجاه شاطئ البحر
شوقي: منيرة...هل تحبينني ؟
منيرة: ألا تعرف الإجابة ؟
أريد أن أسمعها منك أليست من حقي؟
شعرت منيرة بأن أعماقها تردد كلمة أحبك قبل أن تنطق بها للمرة الأولى، ثم شعرت بالخجل لأنها قالتها
شوقي: يبدو أنك لم تعتادي علي بعد
منيرة: اعذرني يا شوقي فهي أول مرة أنطق فيها بكلمة كهذه
شوقي: ولن تكون الأخيرة

....

خيم الظلام على الشاطئ فحمل صلاح ومنال بعض الكراسي ليجلسوا خارج المنزل...علت أنغام الجيتار لتصنع مع صوت البحر لحنًا عذبًا يتناسب مع غموض الليل ...نهضت منال من على الكرسي مفضلة الجلوس على الرمال وبدأت في عزف مقطوعة أخرى وهي أغنية أهواك للعندليب الأسمر...ملأتها مشاعر رقيقة ناعمة جعلت دموعها تهبط رغمًا عنها

منيرة : أتبكين ؟

منال : تأثير الموسيقى والكلمات والليل

شوقي : فقط

منال : نعم

صلاح : لم يحدث ذلك لك من قبل

شعرت منال أنها محاصرة فراحت تغير الموضوع

قائلة : الجو اليوم دافئ على غير عادة هذا الشهر

منيرة : هذا من حسن حظنا وإلا لما تمكنا من الجلوس هنا

صلاح: ولكن يبدو أننا سنحرم من هذه الجلسة الممتعة فأنا أرى والدتي تشير لنا من نافذة المنزل...هيا بنا

منيرة: سنراكم كثيرًا هنا أليس كذلك؟

منال: أعدك أن أزورك كثيرًا حتى تملي مني
منيرة: أنت أختي كيف أمل منك
صلاح: لا داعي لكل هذه المجاملات الصراحة أفضل
منال: هي فعلًا مثل أختي لا توقع بيننا
صلاح: آسف يا آنسة منيرة آسف يا آنسة منال احملي الجيتار على كتفك وهيا بنا
منال: أليس من الذوق أن تحمله بدلًا مني؟
شوقي: سأحمله أنا وهيا بنا حتى لا تغضب أمي.
ثم مد يده ليصافح منيرة وهو يقول: لا تنسي أن تكتبي الواجب الذي طلبته منك
منيرة: حاضر يا أستاذ شوقي لن أنسى

****

لم تذهب منال إلى الحديقة لمقابلة محمود كالمرة السابقة مما جعل محمود يقلق عليها لكنه لم يتمكن من الذهاب إلى صلاح بسبب ظروف العمل

في اليوم التالي ذهب إليها في الكلية، كانت تقف مع بعض صديقاتها حين لمحته قادمًا، استأذنت منهن وتظاهرت بأنها متجهة نحو الكافيتريا حتى لا تنتبه صديقاتها للأمر، استوقفها محمود فتظاهرت بأنها لم تره إلا لوقتها فقط

محمود: لماذا لم تأتِ بالأمس؟

منال: لأسباب كثيرة

محمود: من حقي أن أعرف وبصراحة

منال: وبصراحة !! ولماذا أنت غير صريح معي؟ لقد كذبت علي وتظاهرت بأنك تذهب إلى الكلية ، ولولا حديث صلاح معي لما عرفت

محمود: كنت أخشى أن أتأخر في الكلية فتأتي إلى الحديقة ولا تجديني فتنصرفي

منال: أنا أيضًا كذبت لكن ليس عليك، حين سألني شوقي لماذا تأخرت

محمود: كذبة بيضاء

منال: لا...ليست كذبة بيضاء...لا أريد أن يبنى حبنا على

الكذب، وهناك أمر آخر أغضبني منك، لماذا أخبرت صلاح أنك تحب وسعيد في حبك؟

محمود: ليس لي صديق غيره وكنت بحاجة إلى من يشاركني فرحتي...والآن أخبريني هل يمكنني رؤيتك في الحديقة اليوم؟

منال: لا

محمود : إذًا لا داعي لأن أضيع وقتك الثمين..

قال محمود هذه الجملة ثم انصرف تاركًا منال في حيرة من أمرها...لماذا قالت له لا على الرغم من حنينها للحديث معه؟ هل لأنها غير راضية عن مقابلتها له في الحديقة؟ أم لخوفها من الكذب مرة أخرى؟

خشيت أن يفهم تصرفها فهمًا خاطئًا ويظن أنها تنهي ما بينهما

قررت أن تذهب في الموعد...ولكن هل ستجده هناك؟

وما إن فرغت منال من محاضراتها حتى اتجهت إلى الحديقة، لكنها لم تجده، جلست على أحد المقاعد وراحت ترقب ساعتها في قلق...مر حوالي نصف ساعة فهمت بالانصراف...ولكنها رأته قادمًا نحوها فخفق قلبها بشدة، اقترب منها وهو يقول في رقة: حرام أن نفترق لحظة

واحدة بعد الآن...لو كانت ظروفي أفضل من ذلك لتقدمت إلى والدك لأريحك من الحيرة والخوف

ترقرقت الدموع في عيني منال وهي تقول: إذًا فهمت موقفي

محمود: أنا أفهمك أكثر من نفسك

منال: يجب أن تنجح هذا العام وبتفوق

محمود: أعدك بذلك

منال: ولا داعي لمقابلاتنا هنا مرة أخرى

محمود: ولكن هذا كثير...دعيني أراك ولو مرة كل أسبوع

صمتت منال برهة ثم ابتسمت لمحمود قائلة: ماذا أفعل في حبي لك...موافقة

****

جلست منيرة مع شوقي في الصالة وقد وضعا أمامهما منضدة وأوراقًا وأقلامًا، فقد اتفق شوقي معها على أن يعطيها درسًا كل يوم في السادسة مساء

شوقي: لا يا منيرة أريدك أن تبذلي جهدًا أكبر

منيرة: لقد قلت لك أنني نسيت معظم ما تعلمته ولم تصدقني

شوقي: لا تيأسي أريد أن أرى إرادة أكبر

ابتسمت منيرة وراحت تقول بلهجة طفولية: أريد أن أحصل على أكبر شهادة في الدنيا

ضحك شوقي وقال لها: حبيبتي تستطيعين الوصول إلى كل ما تريدين بالصبر والاجتهاد في عمل واجبات الأستاذ شوقي.

منيرة: حسنًا يا أستاذ شوقي لنكمل الدرس

****

بدأت فترة حرجة من حياة صلاح ومنال ومحمود، إنها فترة الامتحانات، وقد تعاهد محمود ومنال على أن يبذلا كل ما في وسعهما لتحقيق تقدم هذا العام حتى يشعرا أن حبهما دافع إيجابي للنجاح والتفوق.

لم تلتقي منال بمحمود منذ اقتراب الامتحانات...وهذا ما اتفقا عليه.

كثيرًا ما تمنى محمود أن يأتي المنزل لرؤيتها لكن وعده لها منعه، وتمنت هي أن تراه...كان شوقها إليه يزداد يومًا بعد يوم ويزداد معه خوفها من المستقبل.

انتهت فترة الامتحانات وجاء محمود في أول يوم من أيام الإجازة لزيارة صلاح، كانت منال في حجرتها تقف بجوار النافذة حين لمحت "محمود" قادمًا...لمعت عيناها بدموع الفرحة وجرت نحو الباب لتفتح له، علا وجهه ابتسامة حنونة وهو يقول لها: منال...ثم خفض صوته

وقال: وحشتيني أوي

منال: ياه...لا أصدق أني رأيتك مرة أخرى...تفضل

دخل حجرة الصالون وهو يقول : سأقابلك غدًا في مكاننا المعتاد الثالثة مساء.

بدا على وجهها التردد لكنها لم تقوَ على الرفض

ذهبت لتنادي "صلاح" ثم اختفت في حجرتها غارقة في مشاعرها التي لا تعرف لها بداية من نهاية وخوفها أن تفقده يكاد يمزقها..

****

داخل الحديقة كان اللقاء...راح محمود ينظر إلى منال بعينين تفيضان بالحب وتحتضنان صورتها الغالية..

منال: أرجوك...لا تنظر لي هكذا...إنني لا أقوى على تحمل تلك النظرات.

محمود: ألهذه الدرجة تحبينني؟

منال: محمود...أخشى أن نفترق

محمود: نفترق!

منال: هل أنت واثق أن والدي سيوافق على زواجنا

محمود: ولماذا لا يوافق؟ سأعمل ليل نهار حتى أوفر سبل الحياة التي تليق بك أتعلمين إن منزلي مكدس بالعديد من التحف الفنية، كثيرًا ما تعجب صلاح من احتفاظي بها ورفضي لبيعها، كنت أغضب منه وأقول إنها الشيء الوحيد الجميل في حياتي وأنها جزء من ذاتي فهل أبيع ذاتي، لكني الآن سأبيعها.

منال: تبيعها من أجلي

محمود: لأنها لم تعد الشيء الوحيد الجميل في حياتي... أصبح هناك أجمل زهرة وقعت عليها عيناي

أدارت منال وجهها على استحياء فاستمر محمود يقول: هذه الأشياء جزء من ذاتي أما أنت فكل ذاتي

وبدأ محمود بالفعل يحمل بعض هذه التحف، يمر على المحلات، البعض يشتري والبعض يرفض، يحملها ويذهب بجوار الشواطئ...الكورنيش...القلعة...فمن يراه ويدرك قيمة هذه الأشياء يتعجب كيف يبيعها صاحبها بالقرب من الشواطئ كأي شيء عادي.. يحمل أشياءَه ويعود منهكًا..

****

مر حوالي شهر وظهرت نتيجة الامتحانات...نجح محمود بتقدير مرتفع...ذهب إلى كلية منال ليطمئن على نتيجتها ولحسن حظه وجدها هناك

محمود: خير

منال: طبعا خير الحمد لله جيد جدًا

وأنت ماذا فعلت... ؟

محمود: بالتأكيد امتياز ...لقد وعدتك

تهلل وجه منال بالفرحة وقالت: أخيرًا تحقق الحلم ...من اليوم نبدأ رحلة الكفاح لبناء عشنا الصغير

بدا على محمود القلق وهو يقول: عشنا الصغير

منال: ماذا بك

محمود: أبدًا يا منال، فقط تذكرت نفسي وأنا أبيع التحف، منال.. حبنا بحاجة لشيء من التضحية

منال: تضحية واحدة فقط...حتى لو مليون تضحية فلن أتردد

محمود: حتى لو كانت تلك التضحية أن نفترق لبعض الوقت

انقبض قلب منال وتلعثمت كلماتها وهي تقول: نفترق.. هل ستسافر؟

محمود: ماذا بك لا تخافي...كل ما في الأمر أنني سأسافر إلى القاهرة ، سأعمل في خان الخليلي...أصدقاء والدي كثيرون هناك إنها فرصتي الوحيدة لأثبت نفسي، سأذهب إلى صديق حميم لوالدي حدثتني أمي عنه كثيرًا

منال: أنا واثقة أنك ستنجح، سافر واعمل ستجدني دائمًا في انتظارك

محمود: يعز علي أن أبتعد عنك لكن ما باليد حيلة

منال: متى ستسافر؟

محمود: غدًا إن شاء الله

منال: ما أقسى ذلك

محمود: سأحضر غدًا قبل السفر لأسلم على صلاح وأريد أن تفتحي أنت لي الباب كي أراك

منال: سأجلس أمام النافذة من الآن حتى تأتي

محمود: سأشتاق إليك كثيرًا... ادعي لي بالتوفيق

منال: سأدعو لك في كل صلاة أن تعود إلي سريعًا وأن يوافق والدي ولا نفترق أبدًا.

****

استيقظ شوقي كعادته لصلاة الفجر، أثناء الوضوء يحس بالمياه تغسل روحه كما تغسل جسده، نظر إلى وجهه في المرآة، يشعر أن وجهه يشع نورًا وروحه تمتلئ بياضًا... يتوجه إلى حجرته ويفترش سجادة الصلاة...

بعد أن فرغ من صلاته توجه كعادته إلى شاطئ البحر ليرى مشهد الشروق، جلس على الرمال يتأمل السماء ويفكر في مشاكله، يحاول أن يجد خلاصًا بين الألوان التي تتغير تدريجيًا حتى يحتل اللون الأبيض معظم مساحة السماء... نظر في ساعته، لا زال هناك وقت ليتنزه على الشاطئ عله يرى منيرة قادمة كعادتها لتحضر الفطور لوالدها...ينصت إلى صوت البحر...يستطيع في تلك اللحظة أن يسمع صوت كل موجة وكل رجفة ماء... وربما صوت حوريات البحر..

لمح منيرة قادمة، ترتدي ثوبًا بسيطًا أخضر وقد غطت شعرها بوشاح أبيض كانت نسمات البحر تداعبه فيبدو كالراية البيضاء التي تعلن بوضوح عن سلام صاحبها أو عن هدوء موج البحر.. اقترب منها شوقي وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات جديدة فقد أخرجه مجيء منيرة من صمته وسكينته إلى صخب الحياة مرة أخرى

شوقي: صباح الخير يا منيرة

منيرة: صباح النور

شوقي: حضرت مبكرًا اليوم

منيرة: لم أنم طوال الليل، هاجمتني الأحلام المزعجة فهربت منها باليقظة، لا أدري لماذا كانت الأشباح تطاردني بالأمس، ورأيت والدك وهو يزجرني أكثر من مرة بدلًا من أن يحميني منها... رغم توسلاتي له بأن يقف إلى جواري...

شوقي: لا عليك يا منيرة لسنا بحاجة إلى أحد حتى يحمينا من الأشباح، سأصون حبنا وأدافع عنه، أعلم أنك ما زلت متأثرة برفض والدي لزواجنا، لكن هذا الرفض لن يمنعني من أن أكافح من أجل حماية هذا الزواج...

منيرة: طالما أنت معي فلن أخشى من أي شيء

شوقي: وأنا لن أتخلى عنك أبدًا...

ثم نظر في ساعته وراح يقول: والآن علي أن أعود لرحلة الكفاح وأذهب إلى عملي.

سار بعض خطوات ثم عاد يقول: سأحاول أن أبحث عن عقد عمل بالخارج

انقبض قلب منيرة وراحت تقول: لماذا يا شوقي؟

شوقي: لنبني مستقبلنا

منيرة: ولماذا لا نبنيه هنا؟

شوقي: من مرتبي الحكومي !! مستحيل

منيرة: نبدأ بالصغير ثم يكبر

شوقي: كفاك شقاء...يجب أن تعيشي في أفضل مستوى

منيرة: أنا لا أريد من الدنيا سواك

شوقي: ابتسم شوقي في حنان وقال: لا تخافي إذا سافرت فسوف آخذك معي

ثم انصرف تاركًا منيرة غارقة في مخاوفها..

لطالما تمنت أن يتحقق حلمها وترتبط بشوقي، كان حلمًا بعيد المنال ...ما زالت غير مصدقة أنه تحقق...تطاردها الأشباح والمخاوف...تخشى أن يزول الحلم وتفقده ولا يبق لها سوى الحزن والألم.

****

في ذلك الوقت كان محمود يتجول في طرقات القاهرة ... شرد ذهنه في أشياء عديدة، منال...الفن...المستقبل.. ثقته بفنه تشعره بقدرته على تحقيق أحلامه...و ذكريات وحدته ترده من جديد إلى مخاوفه ورهبته من المستقبل توجه إلى خان الخليلي، وهناك بدأ يبحث عن محل صديق والده...بعد فترة من السؤال وصل إليه...الفاترينات الزجاجية تلمع في ضوء النهار وكأنها موج البحر في ساعات صفائه...وقف برهة يتأمل البضاعة المغرية بالشراء ثم دخل وسأل عن صاحبه الحاج إبراهيم، دعاه العامل للجلوس وذهب لينادي الحاج....

المحل مليء بأنواع عديدة من التحف بعضها مصنوع من النحاس والفضة والقليل من الذهب، مر بعض الوقت قبل خروج الحاج إليه..كان يتوقع أن يرى أمامه شخصًا ضخمًا يرتدي جلبابًا وعباءة ويلف رأسه بعمامة ناصعة البياض ولكن ما وجده يختلف تمامًا فقد كان الرجل نحيلًا متوسط القامة يرتدي بدلة سوداء ونظارة طبية قام محمود من مكانه وتوجه نحوه، صافحه الحاج ودعاه للجلوس...

بدأ محمود يعرفه بنفسه وأبيه ولم يبذل محمود جهدًا كبيرًا

فقد تذكره إبراهيم بسرعة، تهللت أساريره وقام من مكانه يصافح محمودًا ويعانقه قائلًا: ابن العزيز الغالي ياه... ألف رحمة ونور عليه...كان سيد الرجال، لكن للأسف لم يرَ معي سوى الشقاء ، هذا المحل لم يكن كما تراه الآن، كان لا يتجاوز أربعة أمتار مربعة، كنا نغادره وليس في جيوبنا ما يسد احتياجات الحياة...أبوك يا بني كان مثل قطعة الذهب، فنانًا حقيقيًّا ...خسارة... و قد تغير الحال والحمد لله كما ترى، لكن ما أخباركم وكيف حال والدتك...

محمود: والدتي توفيت منذ سنوات طويلة

إبراهيم: لا حول ولا قوة إلا بالله...وأنت أتعيش وحدك الآن ؟ وكيف هي حياتك؟

محمود:هذا ما جئت من أجله...والدتي كلمتني كثيرًا عنك وعن أصلك الطيب فرأيت أن أفضل شيء هو المجيء إليك ، ثم راح يخرج مبخرة من الحقيبة التي معه ووضعها أمام الحاج إبراهيم....

راح الرجل يتأملها بإعجاب وهو يقول: صنعة فنان ، صحيح ابن الوز عوام. .

أتعلم قطعة كهذه كم تساوي لو كانت من الفضة؟

شعر محمود بارتياح وبأن همومًا كثيرة قد أزيحت من على صدره وعاد يتذكر منال ويشعر بشوق لرؤيتها...

قطع تفكيره صوت إبراهيم وهو يقول: ما رأيك ستعمل معي والحساب بيننا سيكون بالقطعة

محمود: موافق طبعًا...لكن أرجو أن تساعدني لأجد مكانًا للمبيت فيه.

إبراهيم: اطمئن، أعرف مكانًا مناسبًا وسعره زهيد، تعالَ معي.

على بعد مسافة ليست بعيدة أخذه إبراهيم إلى أحد الأحياء الشعبية القريبة من الخان وأشار إلى عمارة عتيقة وقال له: يوجد حجرة صغيرة في الدور الأرضي، سأتفق مع صاحب العمارة ليؤجرها لك.

دخلا معًا الحجرة، حجرة صغيرة يتوسطها سرير قديم وبها أثاث قليل لا لون له ورغم بساطة الحجرة إلا أنها تتمتع بميزة هامة أن الشمس تغمرها بضياء قوي...

محمود: أتعلم يا حاج إنها أجمل بكثير من حجرتي في الإسكندرية على الأقل تدخلها الشمس.

إبراهيم: توكلنا على الله...أتركك الآن وفي المساء سأنتظرك لتبدأ العمل

محمود: لا أعرف كيف أشكرك

إبراهيم: أنا الذي يجب أن أشكرك لأنك جئت إلي...

راح محمود يلقي بنفسه على الفراش وهو يشعر بإعياء شديد، لم يستيقظ إلا على صوت المؤذن يدعو لصلاة المغرب..

نهض من فراشه وهو يشعر بنشاط غير عادي وحماس للعمل فاستبدل ملابسه وتوجه نحو محل الحاج إبراهيم

****

اعتاد صلاح منذ أن فرغ من دراسته أن يذهب إلى متجر أبيه للعمل معه ووالده يشجعه على ذلك حتى يتعلم منه المهنة وكان يقول له: شوقي لم يعد يسمع كلامي لكن أنت يا صلاح ستكون ذراعي اليمنى..

كان صلاح يسعده ذلك جدًا، فهو يرى أن عمله مع والده هو خير وسيلة يؤمن بها مستقبله، فهو لا ينتظر الوظيفة الحكومية ولا ينوي الاعتماد على نفسه، ولمَ التعب وهو ابن أكبر تاجر قطن بالإسكندرية...لا بد أن يستغل ذلك ويصنع لنفسه اسمًا في السوق ويحقق الثروة التي يتمناها..

كان يجلس مع والده في المتجر يراجع بعض الحسابات بينما راح والده ينظر له من آن لآخر وكأنه يفكر في أمر ما ثم قال بحماس: متى سنفرح بك يا صلاح؟

صلاح: ألم تفرح بي بعد...ألم أتخرج وأعمل معك ؟

الوالد: أقصد فرح آخر

صلاح: أتريد أن تزوجني؟

الوالد: واخترت لك عروسة لن تجد فيها عيبًا واحدًا

صلاح: ومن هي سعيدة الحظ؟

الوالد: ابنة الحاج مسعد عبد التواب تاجر مثلي ولكن في تجارة العطارة ولديه في البنك ثروة طائلة، والبنت

جميلة... مؤهل عالٍ...ما رأيك؟
شرد صلاح بذهنه قليلًا وهو يتساءل: ولمَ لا...أجرب..
عاد الوالد يكرر سؤاله: ها...ما رأيك؟
صلاح: لا مانع أن نذهب لنراها
الوالد: هكذا تكون ابني، أما شوقي ذهب ليناسب الصياد، استعد لنذهب لها في المساء
صلاح: بهذه السرعة!
الوالد: خير البر عاجله ولا بد أن يكون فرحك قبل فرح شوقي حتى يدرك الفرق بين من يسمع كلامي ومن يتمرد علي، أنا متأكد أنه سيمل منها ومن فقرها ويعود إلي مرة أخرى
صلاح: لا أعتقد...شوقي عنيد جدًا
الوالد: الأيام ستكسر عِنْده ، دعنا من شوقي الآن وخذ هذه النقود اشترِ بها بدلة قيمة وهدية للعروس

....

كان صلاح يكمل ارتداء ملابسه حين دخلت منال حجرته وهي تقول في مرح: مبروك يا عريس، المهم أن

تعجبك العروس.

صلاح: طبعًا ستعجبني، وأين سأجد مواصفات كهذه ؟

منال: طبعًا...مال وجمال..

صلاح: نعم

منال: والحب؟

صلاح: الحب جميل لي عايش فيه...لو تنسي تلك الأوهام في ذلك الوقت دخل شوقي...راح ينظر لصلاح ويقارن بين موقفه عندما ذهب ليخطب منيرة وموقف صلاح الآن، صلاح محاط بكل الرعاية والاهتمام من والده أما هو فكان محاط بالازدراء والإهانة..

صلاح: ألن تأتي معي؟

شوقي: لا...فوجودي سيكون غير مرغوب فيه وسيذكره بخيبة أمله

منال: لم أرَ في حياتي خيبة أمل أجمل من هذه

صلاح إذا اتحدت منال وشوقي، عن إذنكم فوالدي ينتظرني

شوقي: مع السلامة يا عريس

انصرف صلاح وأغلق باب الحجرة من ورائه

شوقي: هل تعتقدين أنه سينجح معها؟

منال: أرى أنه لا يفكر في شيء سوى ثروتها وأنها مناسبة له في التعليم والوسط الاجتماعي...ولا أعتقد أن هذا وحده كافٍ

****

منزل العروس في أحد الأحياء الراقية بمدينة الإسكندرية، كل قطعة في المكان تنم عن الثراء...منزل والد شوقي يتسم ببساطة أكثر وعدم المبالغة، ربما لاختلاف شخصية صاحبي المنزل...

دخل الحاج مسعد والد العروس وصافحهم بحرارة ومن ورائه والدة العروس وهي على قدر كبير من الجمال

مسعد: مرحبًا بك يا حاج متولي

متولي: منذ مدة وأنا أنوي زيارتكم ولكن كنت منتظرًا أن يفرغ صلاح من دراسته أوّلًا ، ولكن أين عروستنا؟

الأم: سأذهب لأناديها حالًا

ثم غابت قليلًا وعادت تحمل صينية الشربات لأن ابنتها رفضت أن تحملها، بعد قليل دخلت فتاة طويلة القامة، شقراء، على درجة عالية من الجمال ترتدي ثوب سهرة أسود، انبهر صلاح بها وقام هو ووالده ليسلما عليها

راح والد صلاح يتمتم قائلًا: ما شاء الله مثل القمر

جلست ناريمان وهي تقول: ميرسي يا عمي

ساد الحجرة الصمت بينما راح الأب والأم ووالد صلاح يراقبون الموقف، قطع الحاج مسعد هذا الصمت

قائلًا: تفضل يا حاج لأريك شقتنا ونجلس معًا في الشرفة لبعض الوقت.

فهم الحاج متولي غرض الأب فقام ومن خلفه والدتها

بدأت ناريمان الحديث قائلة: من أي كلية تخرجت؟

صلاح: من كلية الزراعة

انفجرت منال في الضحك بلا مبالاة وراحت بسخرية تقول: ألم تجد غير كلية الفلاحين؟

احمر وجه صلاح غضبًا ولكنه تدارك الموقف وقال: ومن أي كلية أنت؟

ناريمان: في رابعة كلية التجارة

صلاح: ألم تجدي غير كلية البقالين

شعرت ناريمان بالحرج فلم يعجبها أن يسخر منها صلاح

صلاح: واحدة بواحدة

ابتسمت ناريمان بالكاد وراحت تقول: واضح أنك خفيف الظل، ولكن هل عقلك خفيف مثله؟

صلاح: لو كان عقلي خفيفًا لما جئت لأخطبك

ناريمان: ردودك جاهزة دائمًا...أنت رائع

صلاح: أفهم من ذلك أنك موافقة

ناريمان: أريدك ان تأتي النادي غدًا

صلاح: أي نادٍ؟

ناريمان: سأعطيك العنوان ....وسأنتظرك

صلاح: اتفقنا

****

كان محمود متجهًا نحو محل الحاج إبراهيم، لم يجده بداخل المحل، أخبره العامل أنه ذهب ليصلي، جلس لينتظره حاول أن يشغل وقته بتأمل البضاعة الموجودة بالمحل، قلائد ذهبية وفضية منها ما يحمل نقوشًا فرعونية وأخرى زخارف إسلامية، إلى جانب صواني منقوشة بدقة وأواني بأشكال وأحجام مختلفة...

مر الوقت وهو مشغول بتأمل هذه التحف الفنية الرائعة إلى أن سمع صوت الحاج يقول له: أهلًا يا محمود

محمود: أهلًا يا حاج، ثم أخرج من حقيبته صينية فضية اللون وراح يقول: انتهيت من زخرفتها اليوم

أمسكها الحاج وراح يتأملها باهتمام قائلًا: عظيم يا محمود، أريد أن تشغل لي بعض القلائد والحلي الفضية، ثم فتح درج المكتب وناوله بعض النقود، نظر محمود إلى النقود في سعادة وقال : ولكن هذا كثير

إبراهيم : ليس كثيرًا على تلك اليد الذهبية أريد أن يكون عملك دائمًا بهذه الجودة منذ مدة لم يرد على متجري هذا العمل المتقن، تمام مثل والدك.

محمود: إذًا لا داعي لتضييع الوقت، أين الفضة التي سأقوم بشغلها؟ أريد أن أعمل ليل نهار، لا أريد إضاعة الوقت

إبراهيم: يعجبني حماسك
محمود:هذا لسببين أنني أحب عملي والسبب الثاني...صمت محمود قليلًا فقد تذكر منال
إبراهيم مداعبًا: ما هو السبب الثاني؟
نظر له محمود وابتسم ابتسامة ذات مغزى فراح إبراهيم يربت على كتفه ويقول: فليوفقك الله يا بني مع من تحب
غادر محمود المتجر متوجهًا نحو منزله ومشاعر عديدة تسيطر عليه...شوق وحنين...لمنال...للوطن..

....

أحضر ورقة وقلمًا وراح يخط رسالة لصلاح يخبره فيها عن أحواله ومدى سعادته بالعمل الجديد، وتحدث عن صاحب المحل وطيبة قلبه ونبله، ثم بارك له على خطبته لناريمان، أخبره عن عدم استطاعته الحضور هذا الشهر لانشغاله في العمل وأنه سيحضر الشهر القادم..
وصل الخطاب للمنزل لكن " صلاح" لم يكن موجودًا، استلمت منال الخطاب تمنت أن تفتحه وتقرأ ما به...منعها ضميرها، انتظرت وصول صلاح بفارغ الصبر

وما إن وجدته أمامها حتى أعطته الخطاب وهي تقول:
وصلك خطاب من محمود.
صلاح: ياه... لم أره منذ مدة طويلة، راح صلاح يفتح الخطاب ومنال ترقبه بلهفة.
صلاح: يقول أنه سعيد بعمله الجديد لكن للأسف لن يأتي هذا الشهر، كنت أود أن آخذ رأيه في أثاث الشقة
شعرت منال بالحزن لعدم حضور محمود هذا الشهر فهي في أشد الشوق لرؤيته..
قطع تفكيرها حديث صلاح الذي قال: لكن عليه أن يأتي في نهاية الشهر القادم ليحضر فرحي.
منال بدهشة: فرحك ! بهذه السرعة ! لم يمر على الخطبة أكثر من شهر.
صلاح: وماذا أنتظر، كل شيء سيكون جاهزًا في الشقة خلال أسابيع، وهذا هو الفرق بين منيرة وناريمان
منال: الحقيقة أن هذا هو الفرق بين شوقي وصلاح
صلاح: أعلم أن تفكيري لا يعجبك أيتها الفنانة الرومانسية الحالمة...هكذا الحياة حتى داخل المنزل الواحد تناقض في الأفكار وأحيانًا داخل الشخص الواحد...المهم

من يضحك أخيرًا

منال: معك حق...المهم من يضحك أخيرًا

****

مرت الأيام...ووصل إلى محمود خطاب من صلاح به دعوة لحضور زفافه هو وناريمان شعر بسعادة كبيرة...سعادة من أجل أعز أصدقائه، وسعادة لأن الفرصة ستكون متاحة لرؤية منال دون خوف أو قلق من جانبها...آه... متى يمكنه إعداد كرت دعوة لزفافه هو ومنال...ترى هل سيأتي ذلك اليوم...يخشى أن يضيع حلمه ولا يجد أمامه سوى الوحدة والبرد...

لا...لا يجب أن يستسلم...لا بد أن يعمل أكثر وأكثر ولا يضيع دقيقة واحدة

****

انتهى الحاج متولي من إعداد شقة ابنه وحجز النادي الذي سيقام فيه الفرح واستأجر فرقة موسيقية من الفرق الشهيرة..

وفي يوم الفرح، كان النادي مزدانًا بالعديد من الأضواء الملونة وقد رصت المقاعد حول موائد مستديرة غاية في الأناقة، أرضية الصالة من أرقى أنواع الرخام، وفي واجهة القاعة مسرح أنيق وضع عليه كوشة ضخمة ممتلئة بزهور بيضاء من النوع النادر.

كانت منال تجلس في الصالة وإلى جوارها والدتها، ارتدت منال ثوب سهرة وردي اللون غاية في الرقة والجمال ووضعت مساحيق هادئة تزيد من براءة وجهها..

كان قلبها يخفق بشدة وعيناها لا تغادر مدخل القاعة باحثة عن محمود..

بدأ القلق يسيطر عليها، هل يخلف موعده هذه المرة أيضًا؟

الموسيقى الصاخبة تملأ أرجاء المكان، لم تنتبه لها فقد كان الصخب بداخلها أقوى...

سمعت صوتًا رقيقًا يقول لها : مبروك...رفعت عينيْها كان محمود هو القادم

ارتبكت تعبيرات وجهها وارتعشت يداها وهي تسلم عليه وتقول: حمدًا لله على السلامة

محمود: العقبى لك

همت منال أن تقول له : العقبى لنا معًا لكن وجود والدتها إلى جوارها منعها من ذلك.

راح محمود يهنئ الوالدة على زواج ابنها ثم اختار مقعدًا قريبًا من منال على أمل أن يتمكن من الحديث معها، لكن الفرصة لم تواتيه إلا عندما قام العروسان وبدأت الفرقة الموسيقية تزفهما إلى خارج القاعة، انصرف الجميع خلف العروسين بينما سار محمود ومنال في نهاية المدعوين....

محمود: وحشتيني جدًا يا منال

منال: لماذا إذًا غبت عني كل هذه المدة؟ هل بعدك أنساك

منال؟ صحيح البعيد عن العين بعيد عن القلب

محمود: لا...لا تقولي هذا، لقد سافرت من أجلك، وأعمل ليل نهار من أجلك...من أجل حلمنا

منال: لا تتأخر عني مرة أخرى.

محمود: أعدك أن آتي كلما أتيحت لي الفرصة، لكن يجب أن تعذريني إذا تأخرت...إنني أبني مستقبلنا

انتهت الفرقة الموسيقية من العزف وركب العروسان السيارة، انتبهت منال ومحمود فذهبا ليباركا للعروسين، انصرفت السيارة ونظر محمود إلى منال وكأنه يقول لها بعينيه: سأشتاق إليك كثيرًا

فردت عليه بعينيها قائلة: لا تتأخر عني فأنا دونك تائهة حائرة

****

أيقظ زواج صلاح خلال فترة وجيزة في نفس شوقي العديد من المشاعر السلبية ليست الغيرة هي منبعها ولكن شعوره بأن والده يفضل " صلاح" عليه لمجرد أنه تزوج من فتاة توافق ميوله، ألم يكن الأولى كأب عادل أن يساعد ابنه الأكبر في إتمام مشروع زواجه الذي بدأ منذ فترة لا تقل عن عام

إنه ما زال حائرًا...ماذا يفعل حتى يتم مشروع زواجه، وهو لا يريد أن يأخذ مالًا من والدته، لا زال يبحث عن عمل إضافي، ويفكر في السفر للخارج، بدأ في أخذ دورات كثيرة في الكمبيوتر واللغات علها تكون سببًا في سفره فهو السبيل الوحيد لحل مشاكله.

****

تتابعت الأيام... بحلوها ومرها...
مر على سفر محمود إلى القاهرة عام كامل، خلاله استطاع أن يدخر مبلغًا لا بأس به من المال...قرر أن يسافر إلى الإسكندرية ويتقدم لخطبة منال.
كانت منال قد انتهت من دراستها في العام الأخير بكلية الآداب لكن نتيجتها لم تظهر بعد..
لم تكن تعلم ما ينوي محمود في تلك الزيارة، فهو لم يخبر أحدًا بهذه الخطوة....
في ذلك الوقت ذهبت منال لزيارة أخيها صلاح، طوال الطريق تتذكر كيف تم هذا الزواج سريعًا، لم تكن تستريح لناريمان أبدًا ، وقد صدق إحساسها واكتشف صلاح بعد فوات الأوان أنه تزوج من إنسانة مغرورة، شديدة الأنانية، تستمتع بالسخرية من الآخرين والتحقير من شأنهم وكأنها أميرة وهم خدمها، آلمها أن يحدث ذلك لأخيها الذي كان الحزن لا يعرف طريقًا إلى قلبه ،أصبح واجمًا...شاردًا ...وكأنه غير قادر على اتخاذ قرار لإنهاء تلك العلاقة الفاشلة ...
لا تدري هل هو خوف من والده أم هو خوف من الفشل..
رنت جرس الباب، فتحت لها الخادمة، كانت ناريمان

تجلس في الصالة، نهضت بتكاسل وراحت تسلم عليها وهي تقول: تفضلي...صلاح موجود سأخبره ليثرثر معك بعض الوقت..

راحت منال تتأملها وهي تشعر بأنها تنظر إلى عروسة من البلاستيك ذات عيون زجاجية، نظرت لها بغرور ثم قالت: يمكنك الجلوس في الأنتريه، ثم انصرفت إلى حجرتها بينما خرج صلاح ليرحب بأخته

صلاح: مرحبًا بك في منزلي المتواضع

منال: كل هذا متواضع، لا بد أنك تمزح

صلاح: طبعًا...أم نسيت طريقتي

منال: أنت الذي نسيت...منذ مدة لم أرَ في وجهك سوى تعبيرات الحزن...لم تعد كما كنت من قبل

صلاح: لا عليك فدوام الحال من المحال، ثم إن مسئوليات الحياة ومشاغلها كثيرة

منال: ربما...حتى شوقي تغير ولم يعد يبقى في المنزل سوى فترات قصيرة وكأنه لا يريد أن يتحدث مع أحد

صلاح: واضح أنك تشعرين بالوحدة، فرصة لأن تمارسي هوايتك في العزف على الجيتار بدون مضايقاتنا أنا وشوقي

ضحكت منال وقالت: كانت أحلى أيام

صلاح: إذًا حتى أنت تغيرت

منال: ربما يكون انشغالي بالمذاكرة في الفترة الأخيرة هو السبب

صلاح: حتى محمود الذي كنت أقول عنه ثابتًا كالهرم قد تغير أيضًا

منال بلهفة: تغير...كيف؟

صلاح: قديمًا كان يرفض بيع التحف التي يصنعها، والآن يعمل في تصنيع هذه التحف وبيعها

منال: ما السبب في هذا التغيير من وجهة نظرك؟

صلاح: الحب يصنع المعجزات...أحمد الله أنه لا زال يذكرني وسيأتي لزيارتي الأسبوع القادم

ارتبكت منال وخشيت أن يرى صلاح ذلك فتظاهرت بقراءة مجلة كانت أمامها وتحدثت من خلفها قائلة: فعلًا لم يأتِ لزيارتك منذ مدة طويلة

صلاح: من هذا الذي لم يأتِ لزيارتي

منال: محمود

صلاح: لم أكن أقصده الآن ...ليس من الذوق أن تقرئي في مجلة وأنا أحدثك.

ضحكت منال ووضعت المجلة جانبًا وهي تقول: إذًا عن

إذنك...الآن فقط شعرت بالاطمئنان عليك فقد أصبحت طبيعيًا جدًا...

****

منال غارقة في سعادتها....محمود قادم...
لكم تحبه وتتمنى أن يبقى إلى جوارها حتى نهاية العمر...
عادت إلى المنزل، داخل حجرتها فتحت النافذة واحتضنت الجيتار وبدأت تعزف لحنًا رومنسيًا عذبًا...أغمضت عينيها وراحت تتذكر مواقف عديدة جمعتها بمحمود...
يوم لقائها به على البحر دون موعد...عندما كذب عليها وادعى أن له صديقًا في كليتها ليذهب ويراها...يوم أن تصارحا بحبهما...ويوم...ويوم.. متى يتحقق حلمها وتمشي إلى جواره دون خوف...حلم حياتها...ليته يتحقق..
أحضرت الأجندة الخاصة بها علها تعبر من خلال الكلمات عما يفيض به قلبها..
" لماذا أحببتك...سؤال إجابته في عينيك منيرتين دافئتين كشعاع الشمس.. وهذا النور أضاء مكانًا في قلبي..مكان كان قبل أن أراك موحشًا لا يسكنه أحد وجئت أنت فامتلكته، وملأت قلبي بمشاعر شفافة أرق من قطرات الندى وأقوى من إحساسي بالحياة.. للحظات حاولت الإذعان لنداء العقل الذي طالبني بالكف عن هذا الحب..ولكن ماذا أفعل في تلك المشاعر التي فاضت داخلي وجرفت معها كل محاولة للتراجع.. سعيدة أنا بهذا

الفيضان وفي نفس الوقت أخاف من استمراره والوصول
إلى درجة يصبح بعدها احتياجيًا لك كاحتياجي للدماء
التي تجري في عروقي".....
وضعت القلم وانغمست في أحلامها..

****

كانت منيرة قد أعدت الشاي لشوقي ووالدها، وضعت الشاي أمامهما وجلست إلى جوار والدتها..

شوقي: لقد استأجرت شقة صغيرة حجرتين وصالة

منيرة: حقًا...ولماذا لم تخبرنا بهذا الخبر السعيد منذ دخلت.

شوقي: شقة متواضعة كنت أتمنى أن أشتري لك بيتًا كبيرًا

والد منيرة: المهم الإنسان الذي سيسكن معها لا البيت

شوقي: سأبذل كل ما في وسعي حتى أستكمل التجهيزات المطلوبة.

قامت منيرة من مكانها وذهبت إلى حجرتها وعادت ومعها قلادتها الذهبية، قدمتها لشوقي قائلة: بهذه نتمكن من استكمال الناقص.

شوقي: لا يا منيرة هذه شبكتك وأنا لا أوافق على ذلك أبدًا

منيرة: بيتنا أهم من أي شيء

شوقي: منيرة...كفى

منيرة: لماذا ؟ لم أخطئ ، من حقي أن أشاركك في تحقيق حلمنا.

والد منيرة: ادخلي أنت الآن مع والدتك واتركينا معًا

ثم قال بلهجة حكيمة: ماذا بك يا شوقي؟ الحياة تعاون،

القلادة شبكتك لمنيرة وهي تنازلت عنها من أجل شيء أهم.

شوقي: ولكن والدتي هي التي اشترتها لا أنا

والد منيرة: وهل تمانع والدتك في بيعها؟

شوقي: لا أقصد ذلك، هي الآن ملك منيرة لا والدتي، كل ما في الأمر أنني لا أريد أن أبدأ حياتي بمال والدتي

والد منيرة: وماذا به مال والدتك، والدتك سيدة طيبة وتحبك وتبارك هذا الزواج وشاركت بأموالها فيه بالفعل عندما اشترت تلك الشبكة، فما الفرق بين هذه المشاركة وبيع الشبكة من أجل الأثاث.

صمت شوقي ولم يجد ما يقوله فأمسك والد منيرة علبة الشبكة وقدمها لشوقي وهو يقول: نريد أن نفرح بكما قريبًا

****

وبالفعل باع شوقي الشبكة واشترى ما ينقصه من أثاث وأجهزة بسيطة وحدد مع والد منيرة موعدًا للزفاف...
علم والده بذلك فاشتعل غضبًا، دخل عليه حجرته وهو يقول في ثورة: لا زلت مصممًا على إتمام الزواج...ترى أين ستعيش معها في كوخ أم في منزل والدها.
شوقي: لقد استأجرت بمجهودي شقة صغيرة وسعيد جدًا بكل ما بها من أثاث.
الوالد: أنت تكابر وحتمًا ستندم يومًا ما.
سمعته أم شوقي فدخلت لتهدئة الأم وقالت: اترك الولد وشأنه حرمته من مساعدتك لا تحرمه من فرحته بإتمام مشروع زواجه.
الوالد: طيبة قلبك هي التي أفسدته.
تركهم وغادر المنزل بينما انهارَ شوقي في بكاء اعتصر له قلب والدته، اقتربت منه وأسندت رأسه على صدرها وربتت على شعره بحنان وهي تقول: لا عليك يا شوقي سيكون أجمل فرح لأجمل عروسين، وسأحجز لك قاعة في الفندق الذي أقمنا فيه فرح أخيك.
شوقي: لا الفرح أنا متكفل به وسيكون على قدر إمكانياتي الأم: ولكني أريد أن أفرح بك.

شوقي: سعادتي مع منيرة هي التي ستجعلك تفرحين بي حقًا.

الأم: كما تريد يا شوقي المهم أن لا أراك تبكي مرة أخرى قبل شوقي يد والدته وراح ينظر لها باهتمام وهو يقول: لكم أحبك يا أمي ولا أدري لماذا لم يتغير والدي ويصبح في رقتك وطيبة قلبك.

****

سافر محمود إلى الإسكندرية وقلبه ممتلئ بالأمنيات الحلوة، طوال الطريق وصورة منال لا تغادر ذهنه...ينوي خلال هذه الزيارة أن يتقدم لطلب يدها.. يشعر بالقلق والخوف الشديد تجاه تلك الخطوة.. هل يصارح "صلاح" أوّلًا ...وإذا صارحه ترى ماذا سيكون رد فعله؟

وصل القطار في موعده، حمل حقيبة سفره وتوجه إلى حجرته...لم يمكث بها ليستريح من السفر، قرر التوجه أوّلًا إلى صلاح..

داخل منزل صلاح التقى الصديقان.....

أغلق صلاح باب حجرة الصالون حتى يتمكن من الحديث مع صديقه بحرية....

صلاح: ما أخبارك يا محمود؟ وما أخبار الفن معك؟

محمود: ما أخبارك أنت ؟ سعيد في حياتك الجديدة؟

صلاح: سعيد...لقد نسيت معنى السعادة

محمود: نسيت معنى السعادة ! لماذا؟ ماذا حدث؟ آخر مرة رأيتك فيها لم تكف عن الضحك والمرح واعتقدت أنك أسعد إنسان في الدنيا.

صلاح: كنت أحاول الهروب مما أنا فيه، لكن مقاومتي انهارت، لقد نسيت معنى السعادة منذ زواجي بناريمان،

اكتشفت أنني ارتكبت غلطة عمري...إنسانة مغرورة، متبلدة المشاعر، متكبرة حتى على زوجها.

محمود: هل هذا معقول ! لقد كنت مقتنعًا جدًا بارتباطك بها.

صلاح: كنت مخدوعًا، ظننت أن مواصفاتها تكفي لتحقيق السعادة...حسبتها بعقلي وتجاهلت مشاعري... فاختلت المعادلة، لم أحاول أن أتعرف عليها جيدًا قبل الزواج، كنت أظن أن السرعة في إتمام الزواج دليل على نجاحه، ولكن كنت مخطئًا، هذا الكلام أصرح به لأول مرة ولم أخبر به أحدًا غيرك.

محمود: كل هذا تخفيه داخل قلبك.

صلاح: قلبي...تصور قلبي الذي كان يعيش حرًا بلا قيود حتى قيود الحب أصبح الآن يعيش مقيدًا بقيود بغيضة، ومع ذلك لا أجد الشجاعة لاتخاذ قرار الانفصال ولا أدري هل هو خوف من والدي؟ أم من الناس أم من ماذا؟

محمود: ربما تخشى أن تظلمها... حاول معها مرة أخرى

صلاح: دعنا من المشاكل والهموم وأخبرني هل ستحضر فرح شوقي؟

محمود: بإذن الله سوف أحضر لكن هل ستحضر أنت؟

صلاح: نعم...قديمًا كنت أعارض هذا الزواج، كم كنت غبيًا، أما الآن فالأمر تغير كثيرًا...ثم نظر إلى محمود وابتسم قائلًا: ونريد أن نفرح بك أنت أيضًا.

شعر محمود بشيء من الارتباك ولكنه أدرك أن هذه هي اللحظة المناسبة فقرر مصارحة صلاح وقال له: وهذا ما جئت من أجله.

صلاح: أفهم من ذلك أنك مقبل على مشروع خطبة

محمود: نعم، وأريد أن أطلب يدها منك.

صلاح: منى!

محمود: الآن.

صلاح: ما كل هذا الحماس.

محمود: ليس حماسًا إنها حقيقة، صلاح أنا أريد أن أخطب منال.

فوجئ صلاح بتلك الجملة وراح ينظر لمحمود بدهشة...

محمود: كنت أريد أن أخبرك منذ زمن ولكن...صلاح... أنا آسف...ما كان يجب أن...

وجم صلاح وجلس شاردًا بعض الوقت ثم رفع رأسه قائلًا: هي التي كنت تحدثني عنها أليس كذلك

محمود: نعم

صلاح: طوال هذه المدة كنت تخدعني وماذا تريد الآن مني، أن أحييك وأقول لك مبروك...أهذه هي الصداقة؟
اقترب محمود من صلاح وقد بدأت عيونه تلمع بالدموع وهو يقول: أرجوك...لا تتخلى عني...لا تكن قاسيًا...الحب ليس بيدي ولا بيدك، لا تكن أنت والظروف علي، لقد تعبت وتحملت أقصى العناء لأكون جديرًا بمنال...منال التي يشهد الله أنني لم أحمل لها سوى مشاعر الحب الطاهرة ولم يحدث بيني وبينها ما أخجل منه، منال هي بر الأمان الذي وجدته بعد سباحة طويلة في بحر الوحدة، أعلم أنني أخطأت عندما لم أخبرك ورحت أحكي لك عنها كأنها غريبة عنك لكن اعذرني أنت صديقي وأخوها، كنت بحاجة لأن أحكي لك عنها وفي نفس الوقت أخشى من مصارحتك فتسخر مني ومن فقري، صدقني ولا تتخلى عني....
هنا صمت محمود وراح ينظر إلي أرض الحجرة، كان كمن ينتظر حكمًا إما بالإعدام أو بالبراءة...
لكن صلاح ظل صامتًا لفترة طويلة وقد بدأ يشعر أن قلبه رق لمحمود رغم غضبه منه... لأول مرة يشعر بالشفقة نحو إنسان، والشفقة نوع من الحنان...هو الذي

كان يقول عن نفسه أن العواطف لا تؤثر في قراراته يجد نفسه يحكم عاطفته أوّلًا في هذا القرار، ربما لشدة حبه لمنال وحرصه على سعادتها وبدلًا من أن يكون ساخطًا على محمود يجد نفسه متعاطفًا معه راغبًا في مساعدته

صلاح: سآتي معك يا محمود لتقابل والدي لكن بعد فرح شوقي، أنت صديق العمر ولن أجد أفضل منك لأزوجه أختي على الأقل أنت تعرف قيمتها وتقدرها وأنت الوحيد القادر على إسعادها، يكفي واحد في العائلة تعيس...

لم يصدق محمود نفسه، قام من مكانه وراح يعانق "صلاح" وهو يقول له: لا أعرف بأي شيء أكافئك

صلاح: ترتدي أفضل ما لديك وتأتي معي غدًا لفرح شوقي وبعد غد لوالدي، اتفقنا

محمود: اتفقنا

****

أمام منزل منيرة رصت الكراسي بعناية شديدة، وعلقت الأنوار، ووضعت باقات الزهور في أماكن متفرقة...فهذه من والدة شوقي، وأخرى من منال، والثالثة من صلاح والرابعة صنعها محمود بنفسه....

في ذلك الوقت كان صلاح بالمنزل يرتدي ملابسه، نظر لزوجته بطرف عينه ثم قال: ألن تأتي معي الفرح؟

ناريمان: أنا أذهب معك لفرح بنت الصياد

غضب صلاح غضبًا شديدًا من سخريتها وقال لها: ابنة الصياد أفضل منك ألف مرة.

ناريمان: أتشبهني بإنسانة حقيرة مثل هذه، صحيح أنت لا تعرف قيمتي، أنا لن أسكت على ذلك أبدًا

صلاح: أنا الذي لن أسكت عليك بعد الآن ثم تركها وأغلق الباب وراءه بعنف

انهارت هي في البكاء وراحت تتصل بوالدها ...

ناريمان: انجدني يا والدي لقد أهانني صلاح، لا أريد البقاء معه بعد الآن

الوالد: بيت والدك مفتوح، أتركيه حتى يعرف قيمتك

.....

خرج صلاح من منزله وهو يشعر أنه تخطى حاجز التردد أمام أهم مشكلة في حياته وأصبح اتخاذ قرار بشأنها أمر يسير عليه..

توجه نحو منزل محمود وأخذه معه إلى الفرح، وفي الطريق حكى له عما حدث، لامه محمود لأنه تسرع في تصعيد الموقف بينه وبين زوجته. وطلب منه أن يعطيها فرصة أخرى، لكن صلاح لم يكن مقتنعًا بكلام محمود وكان شديد الانفعال والعصبية..

اقتربا من منزل منيرة، راح محمود يقول له اهدأ، لا داعي لأن يلاحظ عليك أحد هذا التوتر...اليوم فرح أخيك

صلاح: لا تقلق، بعد ما حدث اليوم سيعود الهدوء لحياتي كلها.

دخلا معا وسلما على شوقي ومنيرة، رأى محمود منال تجلس في الصف الأول، خفق قلبه خفقة قوية ولكنه خشي أن يذهب ليسلم عليها فيغضب صلاح منه، لكن صلاح راح يشجعه قائلًا: اذهب لتسلم على خطيبتك، تهلل وجه محمود فرحًا ونظر لصلاح بامتنان، وذهب ليسلم على منال وقد تألق وجهه ووجهها بسعادة غير عادية.

منال: حمدًا لله على السلامة

محمود: كيف حالك يا منال؟

منال: في أفضل حال...تفضل

جلس محمود وراح يحدث منال بصوت خفيض قائلًا: لقد فاتحت صلاح في موضوعنا.

ارتبكت منال من المفاجأة وقالت: صحيح...وماذا قال لك؟ رفض؟ وافق؟ أخبرني بسرعة

محمود: ماذا ترين ؟

منال: إذًا وافق...نظرت إلى محمود بحب وسعادة لكن ما لبثت هذه السعادة أن اختفت.

منال: لكن المهم والدي هو الذي يجب أن يوافق

محمود: سأذهب له مع صلاح غدًا

منال: لكم أنا خائفة من تلك الزيارة

محمود: أرجوك لا تخافي وأنا معك

أثناء ذلك كانت منيرة تتحدث مع شوقي والفرحة تملأ وجهها، كانت ترتدي ثوبًا أبيض بسيطًا اشتراه لها شوقي من باقي ثمن القلادة وقد وضعت تاجًا على شكل مجموعة من الزهور انسدلت من خلفه طرحة بيضاء طويلة راح ينظر لها بحنان قائلًا: أخيرًا يا منيرة... لن نفترق بعد الآن.

منيرة: أعدك أن أحاول إسعادك بكل ما أملك من قوة، سأجعل من بيتنا الصغير جنة.

شوقي: سيكون جنة لأنك فيه.

كانت والدة شوقي تنظر للعروسين وعيناها تفيضان بدموع الفرحة ، شيء واحد كان يعكر صفاء فرحتها، مقاطعة والده لهذا الزواج...كم كانت تتمنى أن يعدل عن موقفه على الأقل يأتي لحضور فرح ابنه، ولكن للأسف هذا لم يحدث.

استعد العروسان للزفة والجميع من خلفهم يصفقون ويغنون، كانت قلوب المدعوين هي الفرقة الموسيقية التي عزفت لهم حتى وصلا إلى السيارة التي ستحملهما إلى عش الأحلام...

نظرة إلى الخلف وصورة تذكارية...

وانطلقت السيارة نحو طريق السعادة

****

عاد صلاح إلى منزله منهكًا...ارتمى على الكنبة الكبيرة وراح يغمض عينيه.

يستعيد شريط اليوم وما دار به من أحداث..

قارن بين منيرة وناريمان ، كم كان غبيًا عندما اعترض على زواج شوقي منها، إن منيرة تتمتع بأخلاق لا تتمتع بها سليلة الحسب والنسب وناريمان على قدر عال من الغباء لا تحظى به منيرة الفتاة الفقيرة التي لم تحصل سوى على الإعدادية.. يا له من تناقض بين الشخصيتين...لكم هو نادم على زواجه من ناريمان.. لكن عليه أن ينهي هذه المهزلة....

رفع سماعة الهاتف وأدار القرص بعصبية، جاءه صوتها: ألو

صلاح: أنا صلاح

ناريمان: هل لديك الجرأة للتحدث معي بعد كل ما قلته

صلاح: أنت طالق يا هانم يا بنت الأكابر وضع السماعة بعنف...

أحس براحة لم يشعر بها طوال عام كامل ونام بعمق بعد أن تخلص من قيد كاد يشل حركته .

في اليوم التالي استيقظ محمود مبكرًا جدًا، هو يوم من أهم أيام حياته.. فهو ذاهب لخطبة منال...ترى هل سيعود محققًا لحلمه؟

لم يطق صبرًا حتى يأتي الموعد...ارتدى ملابسه وتوجه إلى صلاح، طرق الباب طرقات مرحة ثم دق الجرس، بتثاقل نهض صلاح ليفتح الباب نظر له بدهشة قائلًا : محمود! كم الساعة الآن؟

محمود: التاسعة صباحًا، أنا آسف لم أقوَ على الانتظار حتى يأتي الموعد.

صلاح: ادخل وهيا لننام بعض الوقت

محمود: وهل جئت إليك لأنام

صلاح: لا يوجد مفر إذًا ، حسنًا سأذهب لعمل الشاي حتى أفيق، وتوجه صلاح نحو المطبخ

راح محمود يقول متسائلًا: أين زوجتك؟

- ذهبت مع الريح

- كيف؟

- كما قلت لك بالضبط

- طلقتها؟

- نعم...وبالهاتف لا بالثلاثة

- ولكن هذا تسرع
- فعلًا كنت متسرعًا في زواجي منها لكن في طلاقها لا أظن
- أنا آسف جدًا لما حدث لك
- لا عليك سأنسى ذلك ، المهم أنت ومنال

ومر الوقت على الصديقين وهما يتبادلان أطراف الحديث وعندما اقترب المساء استعد محمود وصلاح لمغادرة المنزل في طريقهما إلى الحاج متولي

طوال الطريق وحوار طويل يدور بينهما حول آمال محمود وطموحاته للمستقبل

بداخل المنزل كانت منال تقف أمام المرآة تصفف شعرها تارة وتنظر إلى ملابسها وإكسسوارها تارة أخرى، تريد أن تبدو في أبهى صورة عندما يناديها والدها لتسلم على محمود، لمحت الجيتار فحملته بين يديها وراحت تعزف لحنًا غاية في الرشاقة حين كان صلاح ومحمود قد أوشكا على الوصول للمنزل فسمعا صدى اللحن يتردد في المكان..

نظر صلاح لمحمود نظرة ذات مغزى وكأنه يتأمل ردود أفعاله، جرت منال نحو الباب بلهفة، التقت عيناها بعيني محمود ولم تنطق بكلمة واحدة....

صلاح: تفضل يا محمود

منال: سأذهب لأنادي والدي

صلاح: لا..ادخلي أنت حجرتك سأذهب أنا لأناديه، تفضل يا محمود في الصالون.

طرق باب حجرة والده....

الوالد: ادخل

صلاح: مساء الخير

الوالد:أنت...حسنًا فعلت بحضورك فقد كنت قادمًا إليك ما الذي فعلته هذا يا أستاذ؟ هل جننت لتطلق ناريمان ؟

صلاح: زواجي من ناريمان كان أكبر خطأ ارتكبته في حياتي.

الوالد: هذا كلام لا معنى له ولا أعترف به ستأتي معي لتصالحها.

صلاح: أبي عندنا ضيوف الآن، إذا سمحت نؤجل هذه المناقشة فيما بعد.

الوالد: ضيوف! من هم؟

صلاح: محمود صديقي

الوالد: محمود!

صلاح: يريد أن يتحدث معك في موضوع هام

الوالد: أي موضوع من الممكن أن يكون بيني وبين هذا الولد.

ثم غادر الحاج حجرته وسار في خطوات جامدة نحو حجرة الصالون....

الوالد: أهلًا يا محمود

نهض محمود ليصافحه قائلًا: آسف إذا كنت قد جئت دون موعد.

الوالد: لاعليك، صلاح قال أنك تريدني في موضوع هام...خيرًا

تردد محمود وهو يفتح الموضوع لما رآه من تعبيرات صارمة في وجه الحاج ثم استجمع شجاعته وقال: جئت طالبًا يد الآنسة منال

نهض الحاج من مكانه في ثورة قائلًا: ألهذا جئت!

محمود: وأطمع في موافقتك

الوالد: هل ستسكن معك في حجرتك فوق السطوح؟

شعر محمود بإهانة وبأن الحاج يقصد السخرية منه ولكنه تمالك نفسه وقال: أنا أعمل منذ عام في القاهرة وعملي هناك يدر علي دخلًا معقولًا جدًا يمكنني بإذن الله من تلبية كل طلباتك.

الوالد: أنت مجنون! من أنت حتى أزوجك ابنتي يا ابن الخادمة.

هنا ثار محمود ولم يقوَ على كتمان غيظه فراح يقول وقد احمر وجهه: لا تذكر أمي بسوء..نعم ابن خادمة لكن خادمة شريفة أفنت ذاتها من أجلي لأصبح رجلًا كما تراني الآن ولست شابًا عاطلًا أو مرفهًا ويمكنني أن أتحمل مسئولية بيت.

الوالد: ما زلت مصرًا يا ابن الخادمة على أوهامك...لم يبق سوى أنت حتى أزوجك ابنتي

تجمدت الكلمات على لسان محمود ولم يعرف ماذا يقول خرجت منال على صوت والدها وصلاح يحاول أن يهدئ من الموقف جرت منال نحو والدها وقد انهارت في البكاء وهي تري "محمود" ينصرف في عجلة بينما تسمر صلاح في مكانه.

منال: حرام عليك يا أبي ..لماذا فعلت هذا به ؟

الأب: آه ..الآن فهمت أنت التي شجعتِ هذا الصعلوك

منال: أرجوك يا والدي لاتقسُ علي وعليه هكذا

صلاح:ماذا فعل محمود ليستحق منك كل هذا سأذهب لألحق به

همت منال أن تذهب معه لكن والدها جذبها من ذراعها وهو يقول بعصبية : أتريدين اللحاق به أنت أيضًا..ادخلي حجرتك لا نريد فضائح، انهارت منال في بكاء انفطر له قلب أمها فراحت تأخذها بين ذراعيها وتربت علي رأسها وقد راح جسد منال يرتعش بقوة كأنها محمومة

اتجه محمود نحو المقابر وجلس بجوار قبر أمه انهمرت دموعه حارة قوية راح ينادي والدته قائلًا: أمي أين أنت.. أنا بحاجة إليك إلى قربك ماذا أفعل يا أمي لقد حطم هذا الرجل حياتي قضى على حلمي بالسعادة ماذا أفعل أرجوكِ تكلمي لا تدعيني أثرثر هكذا.. بدونك لا أشعر في هذه الدنيا بالأمان حتى الإنسانة التي عوضتني عن غيابك ومنحتني الإحساس بالأمان كتب علي أن أفقدها

أحس بيد ترتب علي كتفه شعر بفزع وجد رجلًا كبيرًا في السن يقف إلى جواره ويقول: من خلال ابتسامة نقية: كن مع من فوقك ..تحس بالأمان.

لم يجرِ محمود هذه المرة مثلما فعل في المرة السابقة وإنما راح يقول بلهجة كلها يأس: أنت ملاك الموت جئت لتنهي حياتي أليس كذلك ؟

الرجل: لا تخف لو كنت ملاك الموت لانتهيت أنت من

المرة السابقة لا تخف يابني ألا ترى يدي امسكها ستجدها يدًا بشرية راح محمود يمسك يد الرجل في ريبة وبعدها قال:فعلًا أنت بشر مثلنا

الرجل: ماذا بك يابني لم هذا البكاء؟

محمود: من الدنيا وقسوتها علي

الرجل: كن مع من فوقك يلين لك القاسي وتندمل جراحك

محمود: لكن الجرح هذه المرة مميت

الرجل: مهما كانت جراحك بيدك أنت الدواء انهض يابني فالموتي لن يصلحوا ما أفسدته يد البشر عش حياتك لا تجعل موجة من أمواجها تغرقك دون أن تحاول العوم لتصل إلى بر الأمان.. إيمانك هو طوق النجاة الوحيد القادر على إنقاذك وهو بر الأمان إياك أن تفقده.

ثم تركه الرجل ومشى في طريقه حتى استقر في مكان ما وسط المقابر وجلس متأملًا لكل شيء حوله راح محمود يناديه: يا هذا ..لم يجبه الرجل.....

عاد يسأله: من أنت ما اسمك لكن الرجل لم يرد بكلمة واحدة وإنما ظل على تأمله كأنه لا يسمع ما يدور حوله، يسبح في دنيا أخرى غير دنيا البشر.

نهض محمود من مكانه وصدى كلمات الرجل لا زال يتردد في أذنه، ساقته قدماه بتلقائية نحو محطة القطار
جلس بجوار النافذة وشريط من ذكرياته مع منال يتلاحق داخل رأسه فتمتلئ نفسه بالكآبه واليأس وإن كانت كلمات الرجل لا زالت تتردد في ذهنه محاولة أن تحدث ثقبًا في هذا الجدار الأسود الحالك.
عاد صلاح إلي منزل والده بعد أن يئس من العثور على محمود ندم لأنه تسمر مكانه عندما طرده والده فقد كبلته الصدمة بقيود خفية جعلته لا يتحرك بسرعة ويذهب وراءه ..كان يتوقع ذلك ولكن أمله كان كبيرًا في أن يوافق والده وفي الوقت نفسه لم يتوقع أن يكون رفضه لمحمود بهذه القسوة.

****

في المنزل كانت منال راقدة في فراشها وإلى جوارها والدتها وقد راحت تبكي بحرقة دخل صلاح وهو يشعر بالقلق

صلاح: ماذا حدث ؟

الأم: ظلت تبكي حتى غابت عن الوعي وذهب والدك لإحضار طبيب لها، جلس إلى جوارها حاول أن يكلمها لم تجبه وإنما راحت تتأوه في ضعف.

الأم: لقد حاولت فعل المستحيل لتفيق لكن دون جدوى.

بعد قليل وصل الطبيب ومن خلفه الممرضة ووالدها، طلب منهم مغادرة الغرفة راح يهز رأسها ويقوم بعمل تدليك لها حتى أفاقت بعد جهد طويل وبعد أن أفاقت راحت تبكي مرة أخرى.

خرج الطبيب إليهم قائلًا: إنها إغماءة نفسية ابنتك عندها انهيار عصبي.

الوالد: وهل هناك دواء لها؟

الطبيب: أهم شيء الراحة النفسية، سأكتب لها بعض المهدئات.

خرج الطبيب بعد أن أرشدهم بمواعيد الدواء وبمجرد خروجه صاحت الأم قائلة: أرأيت ماذا فعلت بابنتك،

أهذا ما تريده لها.

الوالد:اصمتي يا امرأة إنني أعرف مصلحتها جيدًا...يوم أو يومان وستفيق لنفسها وتنسى كل شيء وقتها ستشكرني لأنني لم أهبط بمستواها إلى الحضيض.

الأم: محمود إنسان مكافح وعلى خلق استطاع في عام واحد أن يشق طريقه وسط صعاب الحياة، أنت مخطئ فقد خسرت رجلًا كان سيصون ابنتك ويسعدها

الوالد: كفي يا امرأة لم يبق سوى ابن الخادمة

الأم: سأصمت فقط من أجل منال حتى لا تسمعنا

واتجهت نحو غرفة ابنتها كانت لا تزال تبكي وصلاح يجلس إلى جوارها عاجزًا عن فعل أي شيء، تسأله منال من حين لآخر عن محمود قائلة: هل وجدته؟ اذهب له في المنزل ربما تجده هناك...صلاح أرجوك..ابحث عنه في القاهرة إذا لم تجده هنا..

ثم تخرج آخر كلماتها قبل أن تنام تحت تأثير المهدئات، صلاح..أين محمود؟

****

وصل محمود إلى حجرته في القاهرة، انقبض صدره عندما فتحها...كان يتوقع أن يعود لها وهو مفعم بالسعادة، وها هو يعود محملًا بما لا طاقة له به..

استلقى على الفراش وانهمرت دموعه لتبلل الوسادة...لا يدري كم مضى من الوقت وهو مكانه يبكي تارة ويحدث نفسه تارة أخرى..

ظل قابعًا في الحجرة ثلاثة أيام بلا طعام، يكتفي بقطعة من الخبز الجاف وبعض الشاي يتناولهم كلما أحس بإعياء من قلة الطعام....

جاءه الحاج إبراهيم صاحب المحل..طرق الباب...بتكاسل قام محمود ليفتح، رحب بالرجل ودعاه للدخول..

بدأ الرجل الحديث قائلًا:

- يبدو عليك الإرهاق هل عدت اليوم من السفر؟

- أنا هنا منذ ثلاثة أيام

- ولماذا لم تأتِ إلى المحل؟

- لا أريد أن أعمل

- ماذا بك أخبرني...ألا تعتبرني مثل والدك؟

ترقرقت الدموع في عيني محمود وهو يقول: ليس لدي رغبة في العمل...لماذا أعمل وبأي هدف..

- تعمل لتعيش وتحقق ذاتك

- لقد انتهيت

- لا تقل هذا يا رجل...لا بد أنها مسألة كبيرة، ألا تريد أن تحكي لي؟

- أرجوك..لا أريد التحدث في هذا الموضوع حتى لا يزيد إحساسي بالمرارة

- كما تشاء، لكن تذكر دائمًا أن بابي مفتوح لك في أي وقت وسأنتظرك قريبًا لتواصل عملك معي.

****

مكث محمود في المنزل شهرًا كاملًا لا يخرج إلا لشراء احتياجاته من الطعام.. لا عمل يقوم به...لا أحد يحدثه.. لكن...وفي نهاية هذا الشهر...بدأ إحساس بالنور يغمر قلبه.. لقد قام من فراشه مبكرًا، توضأ وصلى..

حمل ورقة كبيرة وعلقها على حامل الرسم..أمسك بالفرشاة.. راح يسبح بين نسيج من الألوان الحالمة.. نستطيع أن نميز من بين هذه الألوان مشهدًا للسماء والبحر ولحظة الشروق، وفي جانب من جوانب اللوحة راح يخط الخطوط الأولى لوجه رجل كبير في السن يرتدي جلبابًا أبيض وتطل من عينيه نظرة كلها صفاء، يبدو شاردًا في عالم آخر غير عالمنا..عالم لا تحكمه قيود المادة ولا مكان فيه إلا للصفوة من البشر متجردًا من أهواء الدنيا ومطامعها، إنه ذلك الرجل الذي تحدث معه عند قبر أمه..

لم يشعر بالوقت الذي مر عليه..وما إن فرغ من اللوحة حتى شعر بإحساس غريب..إحساس بدأ ينمو تدريجيًا مع نمو اللوحة... شعر بنفسه صافية شفافة، وبالأمل يملأ جوانحه وبرغبة في الخروج والعمل..ارتدى ملابسه.. لأول مرة منذ فترة طويلة يشعر بالنشاط ذهب إلى خان

الخليلي، التقى بالحاج إبراهيم الذي تهللت أساريره عندما رآه واقفًا أمامه..قام إليه ليعانقه قائلًا: حمدًا لله على سلامتك، لقد افتقدتك وافتقدت العمل معك والفن الراقي

- أريد أن أريك شيئًا

نظر إبراهيم إلى اللفافة التي بيده قائلًا: أهي صينية جديدة ؟

- لا هي شيء جديد، ثم راح يزيح الأوراق عن اللوحة أمسكها الحاج وتأملها جيدًا ثم قال: ما أجمل هذه الألوان لكني للأسف لا أفهم في هذا النوع من الفن...اسمع إن لي صديقًا فنانًا تشكيليًا يأتي لزيارتي من آن لآخر ليقتني بعض التحف سأعطيك عنوان عمله

- ولكني لم أفكر في بيعها

- ولمَ لا تفكر في بيعها...عامة حتى لو لم تبعها سيفيدك رأيه كثيرًا وربما يساعدك على إقامة معرض للوحاتك

- لا بأس، أعطني العنوان لأذهب له الآن.

****

في نفس هذا اليوم خرجت منال لأول مرة منذ شهر كامل لازمت فيه الفراش.. خرجت مع منيرة وشوقي إلى شاطئ البحر... وجهها شاحب وعيونها مرهقة من قلة النوم...
راحت تتنفس هواء البحر بعمق وكأنها تطرد ما بداخلها من هموم..تناجيه وتشكو إليه... تقذف بأحزانها فتردها الأمواج مرة أخرى رافضة إغراقها..
راح شوقي يربت على كتفها قائلًا: يجب أن تنسي ما مضى وتفكري في مستقبلك.
منال: لن أنسى ما فات ما بقي لي من العمر، إنه كالوشم لا تمحوه الأيام.
شوقي: لا يا منال يجب أن تسيطري على عواطفك أكثر من ذلك.
لم تجبه منال..ظلت شاردة منعزلة عن كل ما يدور حولها... من على البعد لمحت "صلاح" ، راحت تناديه..
هرول إليها وجلس إلى جوارها..
منال: أرجوك يا صلاح اذهب إلى محمود، ابحث عنه في خان الخليلي، أريد فقط أن أطمئن عليه..
شوقي: هذا ليس في صالحك ولا صالحه، سيزيد آلام كل منكما.

راحت منال تبكي قائلة: أرجوكم لا تحجروا على تفكيري، اذهب له يا صلاح ولا تخبره بأنني مريضة.

صلاح: لا عليك يا منال سأسافر له غدًا بإذن الله

ابتسمت منال في ارتياح ربما لأول مرة منذ لازمت الفراش...

غابت الشمس تدريجيًا فاستعدوا لمغادرة الشاطئ ومنال تشعر بقدر كبير من التفاؤل لأنها ستسمع قريبًا أخبارًا عن محمود..

****

جلس محمود في حجرته منهمكًا في الرسم وكأنه يهرب به من وحدته وهمومه..

راحت كلمات الفنان الذي ذهب إليه تتردد في أذنه"أنت بلا شك بذرة لفنان متألق الحاج إبراهيم أصاب حين أرسلك إلي.. أنا على استعداد أن أساعدك لتقيم معرضًا المهم حماسك أنت"بفرحة طفولية قال له: لا أعرف يا أستاذ حسين كيف أشكرك على تشجيعك الكبير لي..

سمع طرقات على الباب، وضع الفرشاة والألوان وذهب ليفتح.. علت وجهه الدهشة عندما رأى "صلاح" هو القادم، عانقه بحرارة ودعاه للدخول.

محمود: لا تعرف كم أنا سعيد برؤيتك...لكن كيف عرفت العنوان؟

صلاح: لقد أتعبتني يا رجل منذ الصباح وأنا أدور بين المحلات إلى أن وصلت للحاج إبراهيم الذي تعمل معه وهو الذي أعطاني العنوان...

تردد محمود قبل أن يوجه سؤاله لصلاح ولكنه لم يجد مفرًا من أن يسأله فقال له: ما هي أخبارك...وأخبار..منال ؟

صلاح:بخير والحمد لله، هي التي أرسلتني

محمود: حقًا

صلاح: نصيحتي يا محمود أن تنسى وتفكر في مستقبلك
محمود: كلكم تتحدثون عن النسيان
صلاح: لم يعد أمامكم سواه
محمود: من قال هذا...أمامنا العمر والأمل
انظر إلى حجرتي، ألم تلاحظ هذه اللوحات التي
أرسمها..لولا الأمل لما استطعت أن أمسك بالفرشاة مرة أخرى..
ثم جذبه من يده ليريه لوحة الشروق.....
محمود: انظر..شروق ووجه رجل شديد التفاؤل، وهذا هو البحر في صفائه ونقائه، وأشار إلى لوحة أخرى قائلاً:
وهذا أيضًا البحر ستجده في كل لوحاتي، البحر هو حياتي وأحلامي ..صاخبة أحيانًا وهادئة أحيانًا أخرى..
البحر هو أنا تطيح الرياح بأمواجي ثم لا تلبث أن تزول ويعود إلي الهدوء من جديد لكن أبدًا لا أغادر أرضي....
لا تحاول أن تحدثني عن النسيان حاول فقط أن تحدث والدك عن الرحمة.
صلاح: أخاف عليك يا محمود مشاعرك أقوى من أن تتحملها الدنيا...لا أدري بماذا أنصحك لكن ما أدركه جيدًا أن منال تفكر مثلك بالضبط.

محمود: قل لها أنني لم ولن أنساها أبدًا ولن أفقد الأمل في الارتباط بها..

****

كانت منيرة في المنزل حين أدار شوقي مفتاح الباب هرولت نحوه..وجدته مفعمًا بالسعادة والبهجة..

منيرة : خيرًا

شوقي : أخيرًا يا منيرة سأحقق حلمي أخيرًا حصلت على عقد عمل

منيرة : صحيح ..ألف مبروك يا شوقي

ثم صمتت قليلًا وعادت تقول: لكن سنترك أهلنا ووطننا

- لنحقق أحلامنا ونعود

- أنا لا أريد من الدنيا سواك

- يجب أن نبني مستقبلنا ..منزلًا فخمًا سيارة .. شركة

- منزلنا هذا في نظري جنة وسيري إلي جوارك أجمل عندي من أي سيارة، علي أية حال أنا سعيدة لأنك ستحقق أحلامك

- مشكلتك أنك تعشقين الفقر

- تألمت منيرة لهذه الجملة وقالت: ربما لأنني فقيرة

اقترب منها شوقي وقبل رأسها وهو يقول: أنا آسف لم أكن أقصد إيلامك.

نظرت له منيرة نظرة كلها حب وقالت له :متى سنسافر؟

شوقي مازحًا: بمجرد أن ننتهي من تجهيز حقائب السفر.

وعند ميناء الإسكندرية وقف الجميع لوداع شوقي ومنيرة فيما عدا والده الذي ادعى أن مشاغله تحول دون الذهاب معه...سلم عليه في المنزل وهو في الحقيقة لا يريد أن يلتقي بابنة الصياد التي كما يقول سرقت ابنه

شوقي: سأفتقدكم جميعًا وأفتقد الإسكندرية

الأم: ألم يكن هناك بديل لهذا السفر

شوقي:لا يا أمي فأحلامي أكبر من أن أستطيع تحقيقها في وظيفتي الحكومية.

منال:ومتى تعود إلينا مرة أخرى ؟

شوقي:عندما أحقق أحلامي

ثم راح يصافحهم هو ومنيرة استعدادًا لمغادرة المكان، ربت على كتف منال وهو يقول أريد أن أعود فأجد ابتسامتك الصافية التي اعتدنا أن نراها على هذا الوجه الجميل

منال: أتمنى ذلك

شوقي :لا يكفي أن تتمني يجب أن تحاولي أيضًا

ابتسمت منال ابتسامة يشوبها الكثير من الحزن

وقالت:أعدك أن أحاول

****

استمر محمود في إعداد لوحاته الخاصة بالمعرض وهي لوحات تعبر بوضوح عن أفكاره ومشاعره فهذه اللوحة لزهرة ذابلة وقد وضعت حولها القضبان يعبر بها عن حبيبته ..عن منال

وأخرى تتضمن عينيْها وهما تسبحان في بحر هائج متلاطم الأمواج ..وبعضها مجموعة من الألوان المتصارعة ..إلى جانب بعض اللوحات التي تضمنت وجه ذلك الرجل العجوز الذى قابله عند قبر أمه...

شعر بإرهاق .. استلقى على ظهره وراح يتأمل اللوحات التي امتلأت بها الحجرة كان عددها بلا شك كافيًا جدًا لافتتاح المعرض ،لكم يتمنى أن تشاهد منال تلك اللوحات وتقف معه لاستقبال رواد المعرض، هل يرسل لصلاح بطاقة دعوة؟

ولكن لن ينجح صلاح في اصطحاب منال معه إلى القاهرة وبأي حجة سيفعل ذلك، يريدها أن تعرف أخباره... قرر أن يرسل رسالة لصلاح يخبره بموعد المعرض من يدري ..ربما.. أغلق الرسالة وكتب عليها العنوان، لكنه لم يكتب اسمه فقد خشي أن يرى والد منال الرسالة فيمزقها ولا تعلم منال من أخباره شيئًا..

بعد ثلاثة أيام وصل الخطاب إلى صلاح، لكنه لم يخبر منال بأي شيء.. كما سبق وأخفى عنها ما قاله محمود في زيارته الأخيرة له " قل لها أنني لم ولن أنساها ولن أفقد الأمل في الارتباط بها "....

كان يريد أن يساعدها على نسيانه وخاصة لأن اليوم سيأتي لزيارتهم شاب وأسرته لطلب يد منال..ربما تكون فرصة جديدة مع إنسان آخر..

وجاء موعد الزيارة والأم تحاول إقناع ابنتها دخول حجرة الصالون والجلوس مع الضيوف بلا جدوى...لكن أخيرًا وافقت من أجل إنهاء هذا الموقف المحرج للجميع

انصرف الضيوف سعداء باختيارهم، نظر الحاج متولي إلى ابنته نظرة طويلة ثم واجهها بسؤاله: ما رأيك؟

منال: أنا غير موافقة

الأب: لماذا أما زلت في انتظار ابن الخادمة

بكت منال وجرت نحو غرفتها بينما راحت الأم تحاول تهدئته قائلة: لا داعي يا حاج لأن تذكره أمامها بهذه الطريقة وأرجوك لا تجبرها على الموافقة أم تريدها أن تمكث في الفراش مرة أخرى؟ وأنت بنفسك كنت يائسًا من شفائها

الأب: هذا من تدليلك الزائد لها..ماذا أفعل الآن؟ كيف أرفض شابًا بكل هذه الصفات الممتازة..ستخسر ابنتك كثيرًا إن لم توافق، حاولي إقناعها، لا تجعليني أضطر إلى إجبارها على قبوله.

الأم: حسنًا سأحاول وأتمنى أن أنجح في ذلك

لكن الأم لم تنجح بالطبع مما جعل والدها يضطر إلى الاعتذار للشاب وقد امتلأ بغضًا لمحمود وغضبًا من منال

****

نجح المعرض الأول لمحمود.. كتب عنه النقاد وقالوا إنه بذرة لفنان عظيم..شعر محمود بالفخر لهذه الكلمات وشجعه ذلك على أن يحاول إقناع والد منال مرة أخرى.. فذهب إلى الحاج إبراهيم وحكى له قصته وطلب منه أن يساعده في إقناعه..

رحب الحاج إبراهيم بذلك وحمل معه الجرائد التي ورد فيها الحديث عن محمود ومعرضه ربما تساهم في إقناع والدها... لكن للأسف..الحاج متولي رجل عنيد جدًا عاد إبراهيم من زيارته تذيله خيبة الأمل.

محمود لم ييأس وحاول مرات ومرات واستعان بالأقارب والأصدقاء لكن لم يصل إلى أية نتيجة..

مرت ثلاث سنوات على هذه الحال امتلأ خلالها قلب محمود باليأس وقضت على ما بداخله من أمل وتفاؤل.. خلال هذه الفترة رفضت منال كل من تقدم لها، وشغلت نفسها بالعمل كمدرسة..

حتى جاء يوم تقدم لها شاب من أغنى أغنياء الإسكندرية، انبهر والدها به وسألها عن رأيها فأخبرته أنها غير موافقة، فصاح فيها الأب وقال: ولكن أنا موافق..الخطبة الخميس القادم..

تسرب الخبر إلى محمود عن طريق صلاح فجن جنونه وظن أن منال قد نسيته..

فلم يدرِ بنفسه إلا وهو يتجه إلى صديقه الأستاذ حسين الذي ساعده في إقامة المعرض يسأله إن كان بإمكانه أن يساعده على السفر

فرد عليه قائلًا: إلى أين؟

محمود: إلى أبعد مكان عن هنا

حسين: هذا هروب

محمود: اعتبره كذلك لكن لم يبقَ سواه أمامي

حسين: لا بأس، ربما يكون هروبًا مفيدًا لك للغاية...ما رأيك أن تسافر إلى فرنسا وتدرس الفن..لي أصدقاء كثيرون هناك ويمكنني مساعدتك في ذلك

محمود: لا مانع عندي، المهم أن أبتعد وأبتعد

حسين: حسنًا سأبدأ اتصالاتي وأخبرك

****

في ذلك الوقت كانت منال حائرة لا تدري ماذا تفعل وإلى من تذهب..فقد أعد والدها كل شيء وكتب بطاقات الدعوة...صلاح يحاول إقناعها بقبول الأمر الواقع ووالدتها تشفق عليها من التصميم على الرفض..

هداها تفكيرها إلى الذهاب لذلك الشاب في مقر عمله وصارحته بأنها غير موافقة وأن والدها أعلن الموافقة رغمًا عنها... كان الشاب يبدو عليه الغرور والثقة الزائدة بالنفس، رد عليها ببرود قائلًا: ولكني ارتبطت بكلمة مع والدك وأعتقد أن هذا يكفي....

غادرت المكان يائسة لا تدري ماذا تفعل هل تهرب وتسبب فضيحة لأسرتها..لا..لا يمكنها فعل ذلك

عندما عادت للمنزل كان في انتظارها مفاجأة قضت على مقاومتها..خبر سفر محمود لفرنسا..انهارت في البكاء وتساءلت في حسرة: هل يئس محمود؟ هل تخلى عن حلمنا؟

صلاح: يجب أن تكوني واقعية أكثر من ذلك وأن تبدئي حياتك وتنسي الماضي.

منال: لا أصدق أنه سافر وتركني وحدي...لماذا يا محمود؟ لماذا تفعل ذلك بي؟

قبل الخطبة بيوم خرجت منال بمفردها كانت بحاجة إلى بعض الوحدة لتلملم أشلاءها، جلست في نفس المكان الذي اعتادا الجلوس فيه داخل الحديقة..وجه حزين وعينان ذابلتان..تحمل بين ملامحها تعاسة الدنيا كلها..
تبتسم كلما تذكرت كلمات الحب التي كان يقولها لها ثم تملؤها الحسرة عندما تتذكر أنها فقدته.. كم كان رائعًا في مشاعره..جلادًا ماهرًا في تخليه عنها..
تفيض الدموع من عينيها حارة قوية وسؤال يلح عليها لا تجد له إجابة..كيف استطاع حبيبها أن ينسى ما بينهما؟ كيف تنكر لكلمة الحب التي قالها في هذا المكان؟..كيف؟ لا إجابة.

****

تعالت الزغاريد في أرجاء المكان واضحة قوية وضوح وقوة الواقع حلوًا كان أم مرًا.. ارتدت ثوبًا أزرق اشتراه لها والدها ولم تخرج لاختياره... كانت تتحرك بشكل آلي بلا شعور..
وسط المدعوين جلست شاردة حزينة..وجهها لا يحمل أي مظهر من مظاهر البهجة..عيناها ذابلتان رغم الماكياج..
وقف صلاح ينظر لها وهو يشعر بتأنيب الضمير فقد أخفى عن كل من منال ومحمود جزءًا من الحقيقة، أخبر محمود أن منال ستخطب لآخر ولم يخبره أنها غير موافقة..
وأخبر منال بسفر محمود ولم يخبرها بأنها سبب السفر..
لكن عقله كان يؤيده ويقول له: لا جدوى من السباحة ضد التيار وهذا التصرف ينقذ كلًا منهما ويساعده على بدء حياة جديدة حتى لو لم تكن الأفضل....
وجاء موعد الشبكة..شعرت بالانقباض عندما وضع دبلته في إصبعها وهمت أن تقتلعها وتلقي بها لكنها استسلمت ولم تطاوع مشاعرها فما الفائدة من ذلك..
كانت مسلوبة الإرادة يائسة..تحدث نفسها..تعاتب "محمود" تارة وتارة تقول:وماذا كان يمكنه أن يفعل بعد أن أهانه والدي إهانة قاسية ورفض كل محاولاته ووساطاته.. لكن لماذا تركني وسافر،حرام عليك يا محمود أن تنسى كل شيء.

ومر اليوم مرًا ثقيلًا.. لا تدري كم من الأيام مرت بعد ذلك..كل ما تعلمه أنها لم تر يومًا واحدًا سعيدًا مع ذلك الخطيب..فقلبها مشغول بغيره وهو يعلم جيدًا أنها لا تريده ومع ذلك مصمم على الزواج منها.. لكن لحسن حظها أنه اختلف مع والدها بسبب بخله الشديد فالوالد يطالبه بمواصفات خاصة بالمنزل والأثاث وهو يدعي قلة حيلته وعدم قدرته إلا على القليل من هذه الأشياء..

فشعر الأب أنه تورط في هذه الخطبة وأن حياة ابنته لن تكون ميسرة بسبب بخل هذا الشاب وقرر فسخ الخطبة.. تلقت منال الخبر باستسلام ولا مبالاة وإن كانت قد شعرت ببعض الراحة..

واصلت حياتها الجافة لا تعلم شيئًا عن محمود ولا عن حياته بالخارج وإن كانت علمت من صلاح سبب سفره الحقيقي بعد أن فسخت خطبتها..وكم كانت سعادتها حين أدركت أن "محمود" لم يتخلّ عنها وعاد الأمل يسكن قلبها من جديد..

****

مرت عشر سنوات بحلوها ومرها..تغيرت خلالها أشياء كثيرة.. أنجب شوقي ومنيرة طفلًا وطفلة واستقرا في مصر منذ ثلاث سنوات..وتزوج صلاح من إنسانة اختارها هو بنفسه وأنجب منها طفلة جميلة..

مرت السنوات العشر بتثاقل وبطء شديد ومع ذلك عندما تتأملها منال تشعر أنها مجرد ساعات وأنها فارقت "محمود" بالأمس فقط..

****

في هذا اليوم نشرت الجرائد أخبارًا عن الفنان محمود وإنجازاته في فرنسا، تم اختياره في استطلاع للرأي كواحد من أفضل عشر فنانين تشكيليين على مستوى العالم
تطلعت منال إلى صورته في الجرائد بلهفة وشوق وتساءلت..ترى ألا زال يذكرها؟ هل تزوج من أخرى؟ وهل أنجب منها؟ ربما تكون فرنسية..على الأغلب هي كذلك.. لكن المؤكد أن تلك المرأة محظوظة...تركت الجرائد مفتوحة على صورته كأنها تريد أن يراها كل من في المنزل وانصرفت إلى عملها..
عندما استيقظ والدها رأى الجريدة وبها صورة محمود وعلم ما وصل له من شهرة ونجاح..نادى على زوجته قائلًا: انظري إلى ابن الخادمة كيف أصبح..
راحت الأم تنظر إلى الصورة بتحسر قائلة:خسارة
الأب: أتعلمين لو كنت أدرك أنه سيحقق هذا النجاح وهذا المركز المرموق لما رفضته أبدًا.
الأم: لطالما قلت لك أنه إنسان مكافح وطموح ولم تكن تقتنع بكلماتي... لكن هل أفهم من ذلك أنه لو تقدم لابنتك الآن ستوافق
الأب: ولمَ لا..لكن مر وقت طويل ولا بد أن له الآن

زوجة وأولاد وحياة أخرى..فات الأوان

الأم: آه يا ابنتي..مسكينة أنت مع والدك

الأب: لا تتأوهي هكذا...لقد تقدم لها أغنى أغنياء البلد.. ابنتك متمردة وهي التي صنعت بنفسها هذا..لقد أتعبتني كثيرًا معها.

ثم غادر المنزل تاركًا الأم التي راحت تنظر إلى صورة محمود بكثير من الألم.

عادت منال من عملها مبكرةً وراحت تقول وقد ملأها شعور بالبهجة: هل رأيت صورة محمود؟

الأم: نعم..ما أروع ما وصل إليه، يقولون أنه سيعود مصر ليفتتح بها معرضًا

منال: عشر سنوات..هذا كثير

الأم: تصوري والدك وافق أخيرًا على زواجك منه

ذهلت منال من هذه الكلمات وملأتها مشاعر سعادة ما لبثت أن انقلبت إلى يأس حالك السواد وقالت: لقد تأخرت هذه الموافقة كثيرًا..فات الأوان.

جرت نحو غرفتها..ارتمت على الفراش وقد بللت دموعها وجنتيها..اعتصرت تلك الدموع قلب أمها..جلست إلى جوارها وراحت تحتضنها بحنان وهي تقول: كل شيء

قسمة ونصيب يا ابنتي ولو كان من نصيبك لما منعه عنك أي شيء.

منال: أعلم هذا ولكن ماذا أفعل في ذلك القلب الذي عذبني كثيرًا

الأم: ليتني أستطيع أن أجلب لك السعادة لكنها ليست بيدي..هيا امسحي دموعك واعزفي لنا مقطوعة حلوة مثلك.

ابتسمت منال وحملت الجيتار بين يديها وراحت تعزف لحنًا قديمًا كانت قد اعتادت عزفه في الماضي..كل رنة منه تذكرها بأيام لم ولن تنساها..شردت في عالم آخر غير عالمنا فقد عزلتها الموسيقى عن كل شيء إلا ذكرياتها..

****

وصل محمود إلى القاهرة قرب موعد الشروق..أنهى إجراءات الوصول..أرسل الحقائب الخاصة به إلى الفندق، ثم راح يمشي في الطرقات، يتأمل كل شيء حوله لم تتغير ملامحه كثيرًا وإن كستها مزيدًا من الجدية والنضج..

كان يرتدي بدلة سوداء غاية في الأناقة ويضع دبوسًا ذهبيًا في ربطة العنق..

الوقت لا زال مبكرًا جدًا والطرقات هادئة والجو الخريفي يعطيها مذاقًا خاصًا..

وصل إلى الفندق...كان موظف الاستقبال جالسًا يقرأ في إحدى المجلات..قام ليرحب به ثم أمر العامل أن يوصله إلى حجرته..

بداخل الحجرة راح يفتح النوافذ ويستنشق الهواء بعمق فهو في شوق إلى كل نسمة من نسمات وطنه فتح حقيبته... أخرج الحامل وثبت عليه لوحة بيضاء.. راحت يده تخط مشهدًا يعشقه ولا يمحى من خياله...مشهد البحر..وشاب وفتاة ملامحهم غير واضحة، كانت عينا كل منهما تلمع بدموع غزيرة.. اختار ألوانًا هادئة للسماء معبرة عن لحظة الشروق.. أنهى لوحته..

وضع لها عنوانًا " بكاء عند البحر "
راح يتأمل اللوحة من على بعد وذكريات عديدة تجول بمخيلته..لوحة شديدة البساطة شديدة العمق..
شعر بالشوق إلى البحر..إلى الإسكندرية، قرر أن يسافر في المساء إلى هناك..
استلقى على فراشه لينال قسطًا من الراحة بعد يوم مرهق لكن بلا جدوى فالنوم لم يعرف له سبيلًا..
نهض من فراشه..غسل وجهه ببعض الماء الدافئ..ارتدى ملابسه ووضع بعض العطر..قرر أن يذهب إلى الحاج إبراهيم صاحب المحل الذي ساعده في بداية حياته
راح يمشي في طرقات الخان يتأمل المكان بشوق..دخل المحل..وجد رجلًا كهلًا يجلس على المكتب..ياه إنه الحاج إبراهيم لقد تغير كثيرًا..ازداد بياض شعره وتجاعيد وجهه وزاد معها ما تحمله ملامحه من سماحة وطيبة..
رفع إبراهيم رأسه نحو محمود وراح يتأمله لبعض الوقت وهو يحاول تذكر تلك الملامح المألوفة له، اقترب منه محمود وأمسك بيده وهو يقول: ألا تعرفني يا حاج أنا محمود ابن شريكك القديم....
بدا على الرجل أنه يستعيد شيئًا من الأعماق ثم ابتسم كل

وجهه وراح يحتضن "محمود" ثم دعاه للجلوس وهو يقول:
كيف حالك يا بني؟ ولماذا غبت عنا كل هذه السنوات؟هل نسيتنا؟ وماذا فعلت في فرنسا؟ هل تزوجت من شقراء؟
محمود: أنا لم أنسكَ أبدًا يا حاج..وكيف أنساك وجميلك يطوق عنقي ولا أعرف بأي شيء أرد أفضالك علي
الحاج: دعني آخذ صورة معك فالكثير من رواد المحل من الفنانين وعندما يرون صورتك سيعرفونك وتزداد ثقتهم بالمحل.
ضحك محمود وهو يقول بتواضع: ثقتهم بالمحل موجودة سواء بي أو بدوني أنا من أتشرف بك..لولاك لما أصبحت في هذه المكانة..وقفت إلى جواري ووضعت قدمي على بداية الطريق..
الحاج: لم أفعل شيئًا يستحق، لولا فنك لما وصلت لكل هذا، لكن قل لي أين زوجتك الشقراء وأولادك ؟
محمود: زوجتي وأولادي..ولكني لم أتزوج
الحاج: كل هذه السنوات ولم تتزوج
محمود: لا يمكن لأي امرأة أن تحل محلها في قلبي
الحاج: ياه يا محمود..كل هذه السنوات ولم تنسها ؟
محمود: مجنون أليس كذلك

الحاج: لا طبعًا... لا أقصد

محمود: كثيرون قالوها لي..لكن ماذا أفعل في مشاعري ؟

ثم نهض ليغادر المحل

الحاج:لِمَ العجلة

محمود: سوف أحضر لزيارتك مرة أخرى بعد عودتي من الإسكندرية

الحاج: سأنتظرك قريبًا

محمود: أعدك بذلك

****

وصل محمود إلى الإسكندرية في العاشرة مساء..اختار فندقًا بالقرب من البحر ليقيم فيه..طوال الليل وهو يقف في الشرفة يتأمل البحر.. وذكرياته لا تعطي له فرصة للراحة.. وضع اللوحة أمامه وراح يضيف لها بعض الرتوش ليزيد من روحانيتها..تأملها مليًا ثم تركها وذهب للشرفة من جديد.. أغمض عينيه وراح يستمع إلى صوت الموج ويتنفس عبير الهواء الخلاب.. غفا قليلًا وهو يجلس على كرسيه في الشرفة.. نظر في ساعته وجدها تشير إلى الرابعة صباحًا وسمع صوت الأذان فقام وتوضأ وصلى.. ارتدي ملابسه عازمًا على الذهاب إلى الشاطئ لمشاهدة الشروق..

ألقى نظرة على اللوحة قبل أن يغادر الحجرة..

****

في ذلك الوقت كانت منال تجلس في حجرتها..لم يغمض لها جفن تلك الليلة.. تذكرت "محمود"..أول لقاء..أول كلمة حب...تذكرت لهفته عليها...تذكرت فراقها له وعذابها.. تذكرت تلك الفكرة المجنونة التي سبق وأن دفعتها للخروج من المنزل ليلًا لرؤية البحر...يومها قابلت "محمود" بالمصادفة ما أروعها من ذكريات...وجدت رغبة قوية تلح عليها..تريد أن تذهب إلى البحر... ارتدت ملابسها وتسللت إلى خارج المنزل.. وصلت إلى الشاطئ.. كانت أولى خيوط النور قد بدأت في الظهور.. نسمات البحر الباردة تبعث في نفسها بهجة ومرحًا.. أرادت أن تكون أكثر تلقائية فخلعت حذاءها وراحت تجري على الرمال..تملؤها فرحة طفولية كلما تناثر شعرها على وجهها من شدة الهواء..وضوء خافت راح ينتشر تدريجيًا .. جلست على الرمال تنظر إلى البحر تناجيه تود لو تتلاشى بين أمواجه... من على بعد لمحت رجلًا قادمًا..وبخت نفسها، الآن فقط أدركت أن خروجها كان فكرة متهورة وإن كانت أقل تهورًا من المرة السابقة عندما خرجت ليلًا..

راحت تسأل نفسها: ترى ماذا سيقول عني هذا الرجل عندما يراني في ذلك الوقت ؟

وقفت عازمة على الانصراف..

اقترب الرجل أكثر..

استطاعت أن تميز ملامحه..كاد يغشى عليها....

إنه محمود...

ودّت لو تصرخ من فرحة المفاجأة..

ولم يكن هو بأقل رغبة في الصراخ..

اقترب منها..السعادة تغمر وجهه..

تعثرت الكلمات على شفتيه..

التقت العيون وانهمرت الدموع..

ساد صمت طويل طويل وإن كان في زمن كل منهما لا يتعدى لحظة..

لم يتمالك محمود نفسه من الفرحة، راح يضحك بصوت مرتفع..

يجري نحو البحر..يقذف بالماء لأعلى

تشاركه منال الضحك ، تود لو تضحك الدنيا كلها..

تتعانق العيون من جديد، تتلاشى ضحكاتهم ، وتستفيق منال من أوهامها وتعود إلى شاطئها تجثو على ركبتيها وهدير الحزن يعصف بكيانها...

تمر السنون ويتكرر المشهد حتى ظن معظم من عرفها أنه مس من الجنون ولازال سؤال حائر يتردد في مخيلتها..

لماذا يا محمود تركتني بعدما انتهت كل العقبات من طريقنا؟

وها هو محمود يقف داخل معرضه وقد تجاوز الستين من عمره يتأمل تلك اللوحة التي رفض بيعها عشرات المرات..

إنها لوحة لمشهد لطالما تمنى أن يتحقق..

****

تمت بحمد اللّه

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر